(رواية كردية)

مريم امرأة من زمن آخر

ترجمة: سامى الحاج

الهيئة العامة لقصور الثقافة

صبرى سيلفانى

سلسلة آفاق عالمية 108

مريم امرأة من زمن آخر

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
الإشراف العام
صبحى موسى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• مريم امرأة من زمن آخر
• ترجمة: سامى الحاج
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2013م
13,5 x 19,5 سم
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ١٨٥٢/ ٢٠١٣
• الترقيم الدولى: 978-977-718-170-6
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

108

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
رفعت سلام
مدير التحرير
لطفى السيد
سكرتير التحرير
منى هيبة

الأراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة. أو بالإشارة إلى المصدر.

صبري سليفاني

مريم امرأة من زمن آخر

ترجمة (عن الكردية)

سامي الحاج

﴿ولَمَنِ انتصرَ بَعْدَ ظُلمِهِ فأولئك ما عليهِم مِنْ سَبيل ❖ إنما السبيلُ على الذينَ يَظلمونَ الناسَ ويَبغُونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِ أولئكَ لَهُم عَذابٌ أليم﴾

القرآن الكريم، سورة الشورى **40_41**

﴿الدنيا كوميديا بالنسبة لمن يفكر فيها، وترجيديا لمن يشعر بها﴾

و. هوراس

﴿نحن لا نريد العيش في المدينة الفاضلة، ولا في جزيرة لا يعلم إلا الله أين تقع، لكننا نريد العيش في هذا العالم.. عالمنا جميعاً.. المكان الذي في النهاية سيوصلنا إلى السعادة أو إلى لا شيء﴾

وليام وردزورث

﴿تقول الفتاة لحظة ولادتها: أعرف أنكم لا تنتظرون قدومي، وأعلم أن لا أحد منكم يكنُّ لي الحب. ولكني جئت، لذلك أرجوكم دعوني أعيش وأكبر، ثم أطيل شعري وأسرحه وأغني. يومها أراهنكم إذا ما وجدتُ رجلاً في هذا العالم يقول لي: أنا لا أحبك﴾

رسول حمزاتوف

الأول من تموز

تعلمين أنني اليوم قد بلغت السادسة والثلاثين من العمر، ولّما أزل وحيدة. لكنك لا تعرفين أنها المرة الأولى التي أحتفل فيها بعيد ميلادي في أجواءٍ إيروسية، وبمشاركة صديقة وفية وصبورة مثلك.

في الحقيقة، كنت مترددة حتى يوم أمس.. تُرى هل أدعوكِ أم لا؟ لأنك عدتِ من بلد أوروبي، والأعياد ـ في تلك البلاد ـ فقط رقص وأفراح؛ لكنها ـ في هذه البلاد ـ أحزان وحسرات؛ وبالاخص حين يتعلق الأمر بعيد ميلاد بائسة مثلي. هل تصدقين؟ إنه أول عيد يشاركني فيه شخص بإشعال الشموع أو إطفائها، يستمع معي إلى الموسيقى، يقبّلني بحنوٍ ويقول لي (كل عام وأنت بخير).

لقد عرفت أسباب هجرتك واغترابك، لكني ما أزال أجهل سبب عودتك إلى الوطن. ربما لكي تصبحي رفيقتي، وتمضي البقية الباقية من سنوات عمرك معي؟ أرجو أن يكون الأمر كذلك.

في بعض الأحيان، يصادق المرء شخصاً ما، أو يحبه، دو سابق معرفة بينهما، ويتحتم على المرء- في بعض الأحيان تلك- أن يفكر بشكل دائم في غده، وخصوصاً عندما يتملكه اليأس والضجر.

يبدو أن مجيئك سيضفي على حياتي جواً وطعماً آخرَيْن، أو- على الأقل- سيضفيهما على حفل عيد ميلادي. ربما كان مبعث سرور لشخص مخلص مثلك أن يصغي إليْ، يقارن آلامي وأحزاني، ولكني- أنا نفسي- لا أعرف ما هو طعم السعادة، لأن فرصها في حياتي كانت ضيئلة جداً. ربما تمكنتِ، ولو قليلاً، أن تعلميني شيئاً من الفرح؛ ولكن تأكدي أنني لن أتمكن من تعليمك الأحزان والشكوى. عفواً، أنا لست فتاة سادية، وما قصدت من كلامي أن أشكّك في حقيقة مشاعرك، وأقول إنك لا تعرفين الأحزان ولا شكوى لديك، لا.. لأن فاقد القلب فقط لا يعرف الحزن والشكوى.. وأنا على ثقة بأنك تمتلكين قلباً كبيراً، ولكن قلبي أيضاً ليس بالصغير.

عزيزتي نارِين، أرجو أن تمنحيني الحق لأتفاخر بأحزاني وشكاواي، لأنها نتاج كدٍّ ستة وثلاثين عاماً كاملة.

❖

هم لا يفهمونني، أو لا يريدون أن يفهموا. من قال إنني أريد أن أغيِّر العالم؟ أو أن ألوثه؟ كلا، لأن هذا العالم يتغير ويتلوث ذاتيًّا؛ وكل ما أبغيه هو أن أصون عالمي الصغير، فلا أعود أشعر بالغربة. ربما كانت اللغة التي أتحدث بها تختلف إلى حدٍّ ما عن لغتهم، ولكنها ليست أجنبية

على أية حال. أحاول أحياناً أن أترجم تلك اللغة إلى جميع الألوان، لكن القليل منهم يفهم، ربما لأنه يوجد "قلائل" ممن يحبون جميع الألوان.

"صحيح، فالأغلبية يحبون لونين أو ثلاثة"

منذ فترة، وأنت تطرحين عليَّ الكثير من الأسئلة، ومعظمها كان شخصيًا جداً. ربما لأنني لا أجد فرصة سانحة، أو ربما لا أود الإجابة على أسئلتك، لأنني بصراحة أخشى الأجوبة، مثل بعض مديري الدوائر الرسمية في هذه المدينة، الذين يصابون بالهلع حين يُسألون عن معاشاتهم الشهرية وقوائم مصروفاتهم. ولكني أعتقد أن الوقت قد حان لأراجع نفسي، وأعترف بأن الخوف كان سبب انعزالي عن هذا المجتمع، كما كان السبب في موت روح الإبداع والمبادرة في شخصيتي.

هم أيضاً يخافون، ومن حقهم أن يخافوا، لأنهم فُطموا على الخوف؛ يخشون التفكير بصوت عال، يخشون طرح الأسئلة، أو الحديث عن أعمالهم، وخصوصاً تلك التي تجري تحت جنح الظلام وفي خلواتهم.

"شخصية المرء تتشكل من تصرفات وأفعال، والمرء يسعى لتعلم واكتساب كل ما هو جيد وحسن فقط، ولكن الآخرين يعلّمونه السيئ من الأشياء، والخوف هو أسوأ شيء على هذه الارض".

نعم عزيزتي...

لقد خوفونا من كل شئ: من الله، من يوم القيامة، من جهنم، من القبر وأسئلة منكر ونكير، بل حتى من ذواتنا المنفية في دواخلنا.

نارين، اعلمي أن الخوف شعور لذيذ، لكنه غريب. مُحقَّةٌ إن ضحكت من كلامي. نعم، أنت تفهمينه، لكني لا أعرف إن كنت تشعرين به أيضاً أم لا؟

الإنسان في تلك البلاد الباردة يخشى فقط من غضب الطبيعة- في بعض المواسم- وضرائب الحكومة؛ ولكن في هذه البلدان المحترقة، تتشابه الفصول، ولا وجود للضرائب. لكن المرء يخشى من أشياء كثيرة أخرى. أقول إن الخوف شعور لذيذ لأنني أشعر به: الخوف من الهرب الدائم، ليس فقط من النظرات. الخوف من الاختباء، ليس فقط من الشرطة. الخوف من الشك والفانتازيا، ليس من أصحاب اللحى الطويلة فقط. الخوف من الانزواء والانعزال، ليس فقط من المثرثرين. الخوف من الاختلاط والعلاقات، ليس فقط مع الجيران. الخوف من الليل والكوابيس، ليس فقط من اللصوص. الخوف من النوم والأحلام الرمادية، ليس فقط أحلام ما قبل الصباح. الخوف من الصمت والاستماع المستمر، ليس فقط إلى زوجة الأب؛ وكذلك الخوف من اللحظة في عمر الزمن، لأنها الوحيدة القادرة على إثبات حقيقة مشاعري، حين تجتاحني نيران الرغبة المحرمة كل ليلة، وتحرق بيادري وحقولي، قبل أن أُطفئها بلحافي الوردي والقليل مما تبقى لي من حياء.

الخوف لذيذ، لذيذٌ إلى الحد الذي لا أستطيع العيش بدونه.

❖

ـ هنالك بعضٌ من تصرفات البشر مما لا علاقة له بهويات المجتمعات، مثل: الخوف، الجوع، الكلام، والحقيقة. ولهذا، فعندما يتكلم أحدنا فمن الأفضل أن يتحدث فقط عن تلك الأشياء التي يعرفها هو، ويتمكن منها، ليكون أقرب إلى الحقيقة!

ـ فعلاً هو ما تقولين يا نارين، بإمكان المرء أن يتحدث يوماً بطوله، ولكن ماذا سيقول؟

ـ وهذا ما كنت أقصده، يا مريم.

ـ الفرد منا لا يستطيع إيصال رسالته بشكل مختصر ومفيد، لأنه لا يزال يفتقد اللغة السليمة، وخاصة لغة التحاور؛ لذلك غدت الثرثرة دلالة البلاغة. وكما ترين، يقال في المجالس "فلان له لسان طليق"، رغم أن أحداً لا يفقه من حديثه شيئاً. عذراً، ولكن هذا أيضاً داء، وقد أصبنا به جميعًا.

ـ أنا أيضاً كنت كذلك، ولكن بعد غربة خمس عشرة سنة تغيرت. عندما اضطررتُ إلى ترك وطني خلفي، لم آخذ معي السيئ من العادات؛ وعندما عدت أيضاً، لم أجلب معي شيئاً منها.

ـ ليس من الضروري أن يجلبها أحد معه، لأنها موجودة أصلاً. هناك من السوء ما لا تكفي له أعمارنا.

❖

سأكشف كل أوراقي، ولكن لي رجاءً واحدًا: أن تتمكني من الإصغاء لي، حاولي أن تفهميني، لأن الإصغاء والفهم أصبحا ظاهرتين، على الأقل بالنسبة للأشخاص المقطوعين من شجرة، وغير المنحازين.

"وأنا أحب الإصغاء، وخصوصاً لأشخاص يرنون إلى الحياة، مثلك أنت، فنانة ورائعة الأعمال"

شكراً عزيزتي نارِين. في أحيان كثيرة، أستخدم هاتين الكلمتين (شكراً) و(عفواً)، ولكن هنالك من يضجر منهما، وآمل ألا تكوني منهم. على أية حال، فقد علمتِ كم بلغتُ من العمر الآن، وما زلتُ وحيدة؛ وعلمتِ أيضاً أنِ اسمي "مريم". ولكن حان الوقت لتعرفي عني أشياء كثيرة أخرى أيضاً، لأن ذلك من حقك:

والدي "ديوالي" هو من اختار لي هذا الاسم. ولدتُ في مدينة "دهوك"، وفي ذات المدينة ما زلت أُمضي سنوات عمرٍ غير منصف. ليس مهماً إلى أية عائلة أنتمي، لأن جنس الذكور لم يُبق لديَّ الشعور بالانتماء، ولأن معظم عائلات هذه المدينة متشابهة أيضاً: يرون بعينين اثنتين، يسمعون بزوج آذان، يصفقون بيدين اثنتين، يتحدثون بصوت مرتفع، يحبون الألوان ذاتها، ويقدرون الغرباء أكثر. هنيئاً لمن يدخل قلوبهم.. يُقسمون بحياته، يُعلقون ملصقات صوره في شرفات منازلهم العتيقة، وأعلى بوابات الفيلات الحديثة التي يزينونها بالخرز الأزرق درءاً لحسد العيون، رغم أنهم لا يؤمنون بالغيب والأساطير. ولكن، يا ويله وسوادَ ليله مَن يدخل في رؤوسهم، لأنهم لا يحكّون رؤوسهم إلا مرة واحدة كل خمسة وثلاثين عاماً.

حسب مقاييس جمال المرأة الشرقية، وخاصة لدى الدول الأوروبية، كما تعلمين، فأنا لست قبيحة: هيفاء القامة، سمراء، عيون غزلانية، وجيد واسع مثل أمي؛ ولكن- في السنوات الأخيرة- بزغت شعرات بيض في رأسي. ولهذا السبب، فإن من يراني يخمن أن عمري قد تجاوز الأربعين بسنوات.

تعرفين، حبي للأطفال وهبني طبيعة الأمومة. ومَن يقابلني يظن أنني أُم وعندي كومة أطفال، لا يريدون أن يصدقوا أنني مجرد فتاة عانس.

"يا مريمي، أنت بمحبتك الكبيرة لمحيطك تجهدين نفسك كثيراً"

نارِين، كيف لا أتعبْ، وكل شيء أقترب منه في هذه المدينة ينقلب ذكَراً؟ ماذا عسانا نحن الفتيات المسكينات أن نفعل؟ فكل ذكَر، ودون أن يبني هرماً واحداً، يود أن يصبح فرعوناً، وأن نرقص أمام عتبة عرشه. أما أحلامنا، فلتنته بالاستمناء فقط في تعرجات الأزقة الضيقة والخطرة. لقد تعبتُ بما فيه الكفاية، تعبتُ من كل شيء. أنا واثقة أن قوتي تكمن في استمراري، أي أنني لن أنتهي؛ ولكني أشك أيضاً في قدرتي على المطاولة وحيدة. هل تصدقين أنني أحياناً ما أحسد الجواري؟!

"أنا أصدق، لأن القانون كان يحميهن. كان يتم التعامل معهن علانيةً وبوضوح ودون خداع. هنالك الكثير من الفتيات مثلي ومثلك في هذه المدينة التي ترتفع فيها الأعلام الملونة والبنايات فقط، وكلهن يشعرن بالوحدة. خمسة عشر عاماً قضيتُها وحيدة في أوروبا، والآن أيضاً أنا وحيدة، ولكني في اللحظة التي أشعر فيها بالضيق، فإنني أستذكر الله لأنه

هو الآخر لوحده ويود أن يبقى وحيداً. ويبدو أنه ليس بمقدور أيٍّ كان أن يبقى وحيداً.."

❖

نعم.. جئتُ إلى هذه الدنيا كأنثى. وعلى وجه التحديد، في الأول من شهر تموز من عام ألف وتسعمائة وسبعين، كما تقول البطاقة الشخصية؛ ولكن تاريخ الأول من تموز مثبتٌ على بطاقات الكثيرين، وبخاصة أولئك الذين لديهم أبوان أُميان. لذلك، فالأول من تموز- كرقم وتاريخ- بلا أي معنى أو دلالة عندي، ولكنه- كحدث وتأثير- قلب مجرى حياتي مائة وثمانين درجة.

جئتُ مبكراً إلى هذه الدنيا، ولكن لستُ خالية الوفاض؛ جئتُ وجلبت معي كومة أسئلة جديرة بالإجابة؛ ولكن يبدو أن زمن الأجوبة لم يحن بعد. كمسافر هدَّه التعب في ظل محطات الانتظار، أسعى جاهدةً في اللحظات الأخيرة في انتظار قطار قد يأتي لينطلق بي، ويأخذني معه بعيداً، بعيداً بعيداً صوب محطات لم أرها بعد.

نارِين، أخشى أن أموت وأنا لم أر القطار بعد. دخان ماكينته يبدو واضحاً في لوحاتي؛ أما هو، فلا. قلتُ إنني جئت سريعاً إلى هذه الدنيا، ولا أقول ليتني لم آت، لأنني أمتلك أمنياتٍ أخرى، أكبر. لكنني لو كنت ولدتُ قبل آلاف السنين في محراب عشتار ببابل، وارتميت- لأول مرة- في حضن رجل غريب، لقبَّل يومها يدي كلُّ من تفوح منه رائحة الرجولةِ. ولكن، في زمن مغترب ودون إرادتي، فتحتُ عيني على أشعةِ

صيفٍ أحمر وسنابلَ قمح سمراء. في أيام طفولتي المبكرة، أحببت حرارة وقيظ الصيف أكثر من كل الفصول الأخرى، إلى حدِّ الغيرة عليه. أحياناً كنت أستبدل ملابسي، وأذهب مع فتيات ونساء الحي إلى سهل "دوبان"، لالتقاط سنابل القمح التي تخلّفها الحاصدات الزراعية وراءها.

كنت أُشرع كل أبوابي ونوافذي أمام عبق التراب والهواء والألوان. كنت- بين الفينة والأخرى- أساعد فتاة أو امرأة، وأستمع أثناء ذلك إلى صوت ضميرهن ولاوعيهن. كنت أرغب في بناء قصر من السنابل، أصفر في الصيف، أخضر في الربيع، وفي باقي الفصول أبيض وأحمر كخصلات شعر أمي.

ياآآآه...!

كنت أحب الصيف بلا حدود. تصوري، كنت أقول لنفسي أحياناً: لو كان الأمر بيدي، لجعلت الصيف عاماً بكامله، وليس موسماً واحداً فقط. كنتُ أنسى أن هناك أناساً آخرين ولدوا في فصول أخرى من السنة. ولكن بعد عامي الثالث عشر، فتُرَ حُب الصيف لديَّ لأنه لم يتمكن من الصمود أمام قوة إيماني ورغبتي، فاهتزَّ إيماني بالفصول الأخرى أيضاً؛ لذلك رحتُ أبحث عن فصل خامس. ثلاثة عشر صيفاً، مَضيتُ فيها كفتاة بسيطة، حالمة وطموحة؛ ولكن الأعوام الثلاث والعشرين التي تلتها عشتها كمريض أصابه السرطان، يكافح من أجل البقاء قبل أن تحل النهاية. وكما تعلمين، فالنهاية- في ثقافتنا- تعني الموت، وأنا لا أؤمن إلا بالبدايات، بداية الحياة والحرية. والأشخاص

الذين يحبونني، لا أدري إن كانوا لا يزالون يحبونني أم لا، يعلمون جيداً أن ذلك البصيص من الإيمان قد أجَّل نهايتي ثلاثة وعشرين عاماً.

نارينَتي، أنا كأي كردي آخر في هذا الوطن- الذي احتار في أمره الأعداء والأصدقاء- رأيت الكثير بأمِّ عيني. وكأية أنثى أخرى في هذا الزمن المنفلت، نلتُ نصيبي، الكثير من الظلم؛ ومع ذلك، فقد شهدتُ أحداثاً أخرى ربما لا يود الكثيرون رؤيتها، وبالخصوص نساء المدن المدللات وأزواجهن الموظفين.

❖

منذ عدة سنوات وهم يتناجون، ويبث كل منهم الشكوى للآخر همساً، يطردون بها هموم أحزانهم الرخيصة.

آخ لعُهر الأيام؛ في الماضي، كان يتم تبادل الفتيات في الزواج، لكن الآن يتم تبادل الأكاذيب والمصالح. وأنا المسكينة ما أزال صامتة ومطيعة. لم أجد فرصتي للتحدث، لأن نصيبي كان كومة من أسرار وخصوصيات. وعلى هذه الارض المباركةِ بالقتل، كل شئ في طريقه إلى التقديس، عدا الإنسان والدم والأسرار والخصوصيات، فإنها تظل بلا قيمة.

❖

نارين، قلتُ لك قبل الآن: فقط فاقد القلب لا هموم لديه ولا شكوى. وأعتقد أن قلبي مفتوح لا تحده نهايات؛ ولكن ما عساي أفعل

إن لم أجد غيركِ أنتِ، وهذه اللوحات الفنية، مستمعين أفضل مني؟ أرجو أن لا يشفق عليَّ أحد، لأن رأسمالي ليس فقط أحزانًا متوارثة، شكاوى بلا آذن صاغية وأسرار وخصوصيات؛ ولكن بين هذا وذاك، هنالك سعادتي التي تطير كحمامة جريحة دائخة في سمائي الصافية، قبل أن تسقط مضرجة في وحل أحذيتهم. أنا هكذا، لا أستطيع النظر إلى الأعلى دون تحليق الحمامات؛ وحماماتي تحلق فقط حين أقول الحقيقة: حقيقتهم والحياة المؤلمة، حتى وإن كانت أحياناً لا تتواءم وما تشتهيه النفس؛ ولكني لا أعلم متى تطير حمائمهم، وفي أي سماء تحلق.

وفي هذه البلدان التي لا تجد فيها شيئاً ساخناً، سوى رغيف الخبز والمرأة والجو، فإن الصمت يغدو غباءً تارةً، وغربة تارةً أخرى. قبل الآن، لم يكن أحد يعرف من أنا، أو ما الذي جرى لي، ولهذا كانت ذريعة، مشروعة الى حدٍ ما، ألا يتمكن أحد من التدخل في الأمر. هكذا كنت أقنع نفسي، ولكن حتى بعد أن علِموا، فإنهم ينظفون دهاليز أنوفهم بإصبع السبابة. يبرهنون ـ لتأريخ لم يتم تدوينه بعد ـ أنه لم يعد هناك فرق البتة بين المعرفة والجهل، على الاقل عندما تغدو الهستيريا شفرة.

❖

"لا بأس يا مريم، فمن حقهم أيضاً أن يتظاهروا بشيء من الفرح، فالبراكين تُطفئ النفوس، لكن النفوس لا تطفئ البراكين".

نعم يا نارين، في أيام الجفاء، وحين تفرغ الجيوب، فإنهم- شأن جنود حروب خلجان الموت، ذليلين منكسين رؤوسهم في ظل جدران صامتة- يقولون "سعادتنا، مجرد كذبة نحاول إقناع أنفسنا بها"؛ ويقولون أشياء كثيرة أخرى.

"لو افترضنا جدلاً أنهم يمتلكون بعض السعادة، فهل تصدقين أنها سعادة قول الحقيقة؟"

كلا! لا داعٍ لأن يزعجوا أنفسهم أو أن يعترفوا، ويمتدحوا صمودي؛ لأنه حينها سينكشف سر تخلفهم. ولا داعٍ أيضاً لأن يتركوا إرث آلامهم وعذاباتهم بتعابير فجة دون معنى، وأن يظهروا بمظهر المستحقِ رثاء الناس، لأن كل شيء يتبدى في ملامحهم. ملامح كل واحد منهم غدت خارطة إمكاناته ورغباته.

أحياناً، لا تحتاج المناظر إلى أسلحة أو كلمات، وخاصة المناظر المرعبة. والشخص الذي يفهم فن الألوان يعرف هذه الحقيقة أكثر من أي شخص آخر.

وبقدر ما يتعلق الأمر بي، فإنني مختلفة، وملامح وجهي لا تشي بكل شيء، لأن هذه الظروف جعلتني مثل مومياء فرعونية. ومع ذلك، فثمة كثير من الاشياء ما تزال تنبض بالحياة داخلي، مثل: الأحزان المتوارثة، الشكاوى الصمّاء، الأسرار والخصوصيات؛ وعوضاً عن حمامة واحدة، سربُ حمامات.

ليس ذنبي أنني أشعر بهم وهم لا يشعرون بي، وأنني أراهم وهم لا يرونني؛ أغدو حقيقة في كذبتهم، وهم يغدون كذبة في حقيقتي. قد نتشابه في استهتارنا، ولكننا لا نتشابه في همومنا وأحزاننا. هم ينعتونني بالمسكينة السفيهة، ويستهزئون بآلامي وصدقي، وأنا لا ألومهم؛ وذلك لسببين، الأول: حسب علم الجمال، فإن كل كائن يقوم على مستويين مختلفين، المستوى الروحي ومستوى الشكل والتجسيد. ولهذا، فلا روحهم صافية، ولا شكلهم وتجسيدهم ككائن. لقد اعتادوا التعامل مع أنوثة المرأة فقط، لكنهم ينكرون جوهرها، يقصقصون أفكارها وهي لا تزال في أعشاشها، يثيرون مشاعرها ويلتهمون جسدها، لكنهم لا يجرءون على التقرب من روحها لأنها بعيدة، خلف حدود الموت..

السبب الثاني: أنهم مصابون بانفصام الشخصية، بمعنى أنهم مرضى. وهذا المرض لم يظهر في شخصيتهم فحسب، بل أثّر حتى على العلاقة بينهم وبين عمل الخير، بينهم وبين الطرف المقابل، بينهم وبين المنطق، بينهم وبين الحقيقة، وكذلك بينهم وبيني.

عفواً يا نارين، ولكن انقضى زمن طويل وهم ينظرون إلى المرأة كمطية، سيِّئُهم يمتطيها، والشريف منهم يحمِّلها متاعه ويسوقها أمامه، أما أصحاب الأعراف منهم فلا يريدون سوى أن يلجموا فمها.

ولكن الآن، قررت المرأة أن تتكلم وتشهد على أفعال الجميع، بلا استثناء.

"هم يرون أن شهادتك منقوصة"

صحيح، لأنني امرأة. الجميع ينظرون إليها حسب نظرتهم الخاصة، ولكن يبدو أنهم لا ينظرون إلى المرأة بعيونهم، وإنما بأعضاءٍ أخرى من أجسامهم.

أُقسم بملك الجان الأكبر أنني لن أكذب اليوم، ولن أقول غير الحقيقة.

❖

بقانون غير مجدٍ، سلفي وعتيق بعمر الزمن، حاكموني. كان ذنبي الوحيد أنني صدّقتهم واعتبرت نفسي واحدة منهم. وهكذا آمنت بسلطة الرقَى والتعاويذ، وبتجربة عريقة وحُبلى. بالمقابل، كان جزاء الإحسان أنهم تركوا عذريتي بلا مواسم. والآن يبحثون في أطلال الزمن، عبثاً، محاولين العثور على براءتهم، ولكن حيثما وُجد المال فلا وجود للأبرياء هناك. أنا أيضاً خطّاءة، ليس لأنني وسخة أو سيئة، كلاّ، ولكن لأن قناديل الأمل والتسامح ما تزال متوقدة في ظلمات نفسي.

كانت أمنيتي أن يجسدوا، ولو لمرة واحدة، المساواة ماثلةً للعيان، أن يبرهنوا أنهم بالفعل خلفاء الله على كرة الأرض؛ كانت أمنيتي أن يقيموا محاكمة شاملة لينال كل ذي حق حقه، لكنهم لم يسمحوا بذلك: بلا أدلة، وبلا شهود وحق الدفاع عن النفس، حاكموني؛ وكانت عقوبتي "أن يهرب مني كل من يستطيع التبول واقفاً..". هكذا، مرت ثلاث وعشرون سنة، وأنا المضطربة أواسي نفسي، وأشكك في ضرورة كينونتي.

"أن تواسي نفسك، فذلك حقك المشروع جداً؛ ولكن إياك أن تشككي في ضرورة وجودك. عزيزتي مريم، فلتعلمي أن الشمس لا تشرق عبثاً.."

هم لديهم الكثير مما يخشون منه، لذلك فهم يخافون من التحدث هكذا بسهولة؛ كما أنهم لا يدعون أحداً يتحدث كي لا ينشر غسيلهم القذر. أما أنا، فلم يبق لديَّ ما أخشى منه، لذلك لن أقول سوى الحقيقة. هذا خطأهم؛ فلو كانوا قد تركوا لي شيئاً آخر، فربما كنت أوجست في نفسي خيفة منه. وبما أننا قدمنا الشهداء ضحايا لأشياء كثيرة، فأنا أيضاً على استعداد لأكون شهيدة الحقيقة.

ربما كنتُ إلى حدٍّ ما غير جديرة ونافعة، شائنة، قذرة؛ مجرد عينة للمجتمع. ولكني- ببراءتي، بآلامي وعذاباتي، بجراحي التي ما فتئت ساخنة، بحقوقي البسيطة المشروعة- فأنا طاهرة.

"وبكرديتك أيضاً، لا تنسي ذلك"

ربما، ولكن تعريف الوطنية الكردية، ومعايير الالتزام بذلك، قد تغيرت. سأتكلم قليلاً، وليتكلموا هم حتى الشبع؛ ولكني بصوت مرتفع، وهم كالعادة بصوت خفيض. طبعاً، ليس بالضرورة أن الاشخاص المكبوتين والخجولين وحدهم هُم من يتحدثون بصوت خفيض، لأنه في بلاد الشرق (الحرامي والجبان، وأحيانا الدكتاتور ومذيعو التلفزيون) أيضاً يتكلمون بصوت منخفض، وكذلك الفقراء والمنسيون أيضاً؛ وبالخصوص عندما تنقطع إمدادات الماء والكهرباء

والوقود. الاختلاف بيننا كالبرزخ: أنا لا أحدِّث نفسي فقط، لأنني أؤمن بالآخرين أيضاً، لكنهم يحدِّثون ذواتهم فقط، لأنهم ببساطة يؤمنون بأنفسهم فقط.

"أنا أفهم، ولكن بمقدور الحب أن يمنح معاني جميلة للاختلاف".

الحب أصل السبب

كنت أحب أبي بلا حدود، حبه حفزني لأن أحب كل رجال هذا العالم، وبالأخص الذين يشبهونه في هدوئه وطلته الباسمة. ولكن بعد حين فَتَر حماس قلبي.

ففي شتاء عام ألف وتسعمائة وواحد وثمانين، تستبدل أمي "حليمة" ثوبها، وقبل أن تكتمل سنة رحيلها الأولى تحتل زوجة أبي "منجول" مكانها. كنت أعتقد أن لا أحد يمكنه أن يأخذ مكان الآخر، ولكن "منجول" نسفت اعتقادي هذا. وبعد قطع المهر وزفافها، اغتربتُ مع نفسي، ولكني لم أشأ أن يبدو عليَّ ذلك، كي لا يشعر أبي بتأنيب الضمير.

❖

الزمن يصنع الأسئلة، والأخيرة تفعل فعلها وتؤثر في الاعتقاد. أتذكُر هنا، وكنا في الصف السادس الابتدائي، أن مدرس مادة التربية

الدينية قال- ذات مرة- في إحدى الحصص متفاخرًا: "حسب الشريعة الإسلامية من حق الرجل أن يتزوج حتى أربع نساء"؛ ولن أنسى أبداً عندما سألته متعجبة: ولكن يا أستاذ، لماذا يحق للرجال ذلك، ولا يحق للنساء؟

"وبأي جواب أقنعَك؟"

لم يقنعني. تغيرت ملامح وجهه الباهتة، احمَرَّ بياض عينيه، تغضن جبينه كأفاع ملتوية على بعضها، كما لو أنني كفرت ولم أطرح سؤالاً. صاح عليَّ ونهرني بحنجرة يمزقها الغضب، ولكن الصمت أسعفني وأطفأ حرائق جمره الملتهب. لم يستطع الاستمرار في الحصة، ترك الباب مفتوحاً وراءه وسؤالي مطفأً في رمادٍ بارد. دارت الأعوام، ونسيتْ الطالبات ردة فعل الأستاذ، لكنهن حفظن سؤالي عن ظهر قلب.

❖

عندما أقف أمام لوحة فارغة ألجأ الى الألوان، ولكن عندما أتكلم أستنجد بالكلمات. حتى الألوان والكلماتِ نالت حريتها، ولكن نحن لا نزال أسرى، أسرى الـ(نعم) والـ(لا). بعدها، مرت أشهر "منجول" التسعة سريعًا، وبأول صرخة أعلن أخي الصغير "كوفان" أن حياته ستكون أكثر سعادة من حياتي، فقط لأنه ذكر. وبفضل القلم، سجلتُ يوم ولادة "كوفان" الرابع من حزيران عام ألف وتسعمائة واثنين وثمانين، لم أدعهم يجعلوه الأول من تموز.

كان والدي يحب "كوفان" كثيراً، ربما لأنه كان الولد البكر، وربما لأنه كان يحمل الكثير من ملامحه: بشرة شقراء، عيون زرق، أنف مستدق وحنك صغير مثل مواطني الدول الاسكندنافية. لكنه لم ير شقيقتي "كازين" لأنها، عندما توفي، كانت لا تزال في بطن أمها "منجول" مجرد هلام. وكانت "كازين" تشبه أمها: بيضاء، قصيرة القامة، بشفاه رقيقة، ولكن بسبب أنفها الطويل- بعض الشيء- فقد كانت عيناها تبدوان عميقتين في محجريهما، قريبتين من بعضهما على خلاف العادة. ولكن على العكس من أمها "منجول" الحاقدة المشعوذة، كانت "كازين" فتاة هادئة رقيقة.

"هو كذلك يا مريم، فالزهور لا تنبت فقط في الحدائق"

حقا، كانت "منجول" حاقدة مشعوذة، لكنها كانت تمتلك شخصية جذابة. كانت كل نساء الحي يرفعن الراية البيضاء أمام سطوة إثارتها وأناقتها. بنظرة من عينيها المترعتين، أو بحركة من ردفيها المتناسقين الرشيقين كمؤخرة أرنبة، كانت تجعل الرجل يفسد وضوءه، كما يقال. كانت تُقصر شعرها على طريقة شبان تلك الأيام، تحفّ قوس حاجبيها كخيط رفيع ما تنفك ينمو على حافتيه زغبٌ جديد يعطي وجهها جاذبية مثيرة. وهي تعرف أن الرجل يحب ذلك في المرأة. تزين قامتها بثياب ملونة وضيقة تلتصق بجسدها، وتدع صدرها عارياً حتى أخدود نهديها، وتبدو حمالة صدرها ظاهرة للعيان، وهي ما تني تقول "جمال المرأة الكبيرة في صدرها". ومثل العديد من الأمهات اللواتي يبغين المحافظة

على جمالهن، كانت هي أيضاً ترضع أطفالها الصغار من حليب العلب، ليظل نهداها متحفزين، فلا يرتخيان ولا يتهدلان.

❖

بعد أن التحقت أمي بالقافلة البيضاء الصبورة، بقيتُ وحيدة. بتُّ أكثر ارتباطاً بأبي، ولكن ثقتي بالمستقبل بدأت تتضاءل، حيث كان يتناهى إلى سمعي أحياناً أن الرجال الأرامل غير أوفياء، على العكس من النساء الأرامل. حينها كنت أتذكر قصة الرجل الذي كان يوم دفن زوجته يتجول ببصره بين النساء، بحثاً عن امرأة أخرى. غدوت حزينة مكتئبة، وبدأت لا إرادياً أستنجد بقوى خارجية.

"نعم يا مريم، الإنسان الشرقي يلجأ الى قوى خارجية في أوقات الشدائد والفرج، على حدٍ سواء، ينكر ذاته كمصدر للخير والشر".

في خلوتي، كنت أدخل في نقاش مع نفسي:

ـ والدك رجل محبوب، ولا يزال في عز شبابه، فحرامٌ أن يمضي بقية حياته وحيداً!

ـ أعرف ذلك، ولكني أنا وأمي أيضاً حرام.

ـ أمك ماتت، وذهبت الى حال سبيلها!

ـ إخرسي. أمي لا تموت، لا أحب أن تتفوهي بذلك مرة أخرى.

ـ ماتت وذهبت، لكن والدك لا يزال حياً يُرزق، فلا تدعيه يموت هو الآخر!

ـ أنتم تقتلون الأحياء، وتعبدون الموتى، ولكن أنا...

ـ أنت ماذا..؟

ـ أنا أخاف.

ـ مِمَ تخافين؟

ـ أن يتركني أبي وحيدة!

ـ لا تخافي، لن يتركك وحيدة، إنه ليس كأي رجل آخر، يبدو أنك لا تعرفينه جيداً.

ـ أنا أعرفكم بما فيه الكفاية. ربما تمكن أحدهم أن يأخذ مكان شخص آخر، لكنه لن يشبهه أبداً. ولكن عندما يتعلق الأمر بالنساء، فإن معظم الرجال يفكرون بنفس الطريقة، وفي النهاية هو رجل ليس إلاّ.

ـ بالنسبة إليه، ما يزال هناك متسعٌ من الوقت، ومن حقه أن يتزوج ثانية!

ـ أي حق... ومن الذي أعطاه ذلك الحق؟

ـ الدين، الشريعة والمجتمع.

ـ ولكن ألا يحسب الدين والشريعة والمجتمع حساباً لمشاعر أمي حليمة؟ وإذا كانوا مثلك سيقولون "إن أمك ماتت وذهبت"؛ فها أنا ذا

ما زلت حية، ليفكروا في أمر مستقبلي، في مشاعري، ليفكروا في أيامي القادمة ومصيري.

ـ هذه هي سنّة الحياة.

ـ سنّة الحياة أو الرجال؟

ـ قلبي معك!

ـ حقا؟

ـ نعم. لأن واقعنا اليوم أشبه بمزبلة، وأنت تتفتحين فيها كزهرة ملونة.

ـ انا أيضاً أشفق على حالي، ولكن..

ـ لكنك لا تستطيعين تحويل المزبلة إلى ربيع، ربما، ولكن على الأقل، فبإمكانك أن تحافظي على لونك ورائحتك.

ـ مَن قال إني أستطيع؟ هل نسيت من أكون؟ أنا مجرد أنثى في زمن ذكوري. تأكدي أنني لن أستطيع، لكن بإمكان أبي أن يحافظ عليْ، فليمتنع عن الاقتران بامرأة ثانية، وعهدٌ عليَّ أن أبقى في خدمته وألا أتزوج أبداً.

ـ ولكن هناك أعمالاً لن تستطيعين تأديتها.

ـ سأحاول.

ـ مريم، أنت لا تفهمينني

ـ أنا لا أفهمك؟ إذن حاولوا أنتم أن تُفهموني!

ـ (أنتم) من؟

ـ أنتِ، الدين، الشريعة والمجتمع.

ـ يبدو أنك نسيت؟ كان والدك دائمًا يضع طاقيته قاضياً له، هذه المرة اجعلي أنت طاقيتك قاضياً لك.

ـ ما الذي سيميزه عن بقية الرجال إذن لو تزوج بامرأة أخرى؟

ـ لكنه لم يفعل.

ـ وماذا لو تزوج؟

ـ وإذا لم يتزوج؟ اعلمي جيداً أنه يقدّرك كثيراً، وسيوافق على أي قرار تتخذينه، ولكن من يحترم رغبته هو؟ من يؤيد قراره؟ برأيي فقط ذلك الذي يحبه، ولا أعتقد أن هناك أحداً في هذه الدنيا يحبه أكثر منك.

ـ و"منجول"؟

ـ الحب ليس في وارد تفكيرها، إنها تلتف حول والدك ليقترن بها. النساء الخبيرات المجربات من أمثالها يستخدمن عقولهن وليس قلوبهن. باختصار، يبحثن عن الرجل الممتلئ لكي يؤمِّن متطلبات حياتهن، ووالدك يرى هذه الحقيقة لكنه يغمض عينيه عنها مضطراً.

ـ وزري ووزرُ أمي في أعناقكم.

العُرس

من يقول إن "الرجال أقوياء والنساء ضعيفات" إنما يردد قول الآخرين ويمضغ علكتهم؛ وعليه- قبل التصريح بذلك- أن يرفع الغطاء عن رأسه، ليتسلل نور الشمس إليه ويمنح الفرصة لعقله للتفكير. فقد مرت ثلاث وعشرون سنة وأنا أقاوم الوحدة بمفردي، لكن أبي لم يقاوم حتى عاماً واحداً فقط. لن أنسى قط تلك اللحظة التي تقابلنا فيها أنا و"منجول" وجهاً لوجه؛ أنا بملابسي السوداء، وهي بالطرحة البيضاء.

في ذلك اليوم، رأيت الفراشات الملونة عندما كانت تحلق في فضاءات وجه أبي، لكنه لم يرَ السمكات على سواحل بحار عيني، وهي تؤدي رقصة الموت الأخيرة. طوال الليل، التقيا هو و"منجول" في مكانٍ ما قبالة الحدود، وأنا وأمي في مكانٍ آخر خلف الحدود. الموت سلبني أمي، و"منجول" سلبتني أبي؛ لذلك غدت "منجول" والموت رمزين مرتبطين في معظم لوحاتي.

ثم قضمتُ رأس "منجول".. ففي الأول من تموز عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثمانين، وصل جثمان أبي إلى دهوك، بعد أن قُتل في حرب الخليج الأولى جنوبي العراق. لم أصدق في بداية الأمر، وقلت لنفسي "كذب، أبي لا يموت". ولكن بعد أن ارتفع عياط "منجول" عالياً، وهي التي لا ترتفع قامتها عن الأرض سوى قليلاً، تمنيت أن يكون الأمر صحيحاً. قاتلني الله، لا أعرف كيف تفوهت بذلك، فقد رفعت رأسي وقلت جذلى "يستحق ما جرى له".

في المقبرة وقفنا، أنا و"منجول" قبالة بعض، لا أدري لماذا كنت أود أن تقترب مني، لكنها عندما كانت تقترب كنت أبتعد أكثر. شدت "منجول" شعر رأسها، وأشبعت الصدر الذي كانت تحافظ عليه- كقنينة عطر فاخرة- ضرباً ولطمًا بالكفوف؛ اختلط كُحل عينيها بالدموع المنهمرة، وسال معها. كانت تنوح وتقول "يا ديواليَ العزيز، لمن تركتني، أنا المسكينة، لمن تركت ابنك كوفان...؟". حاولتْ أكثر من مرة الارتماء في جوف القبر المفتوح، لكن الرجال كانوا يمنعونها، وكنتُ سأمنعها بنفسي- على أية حال- لو لم يفعلوا ذلك، لأن "ديواليها" كان قد اتخذ قراره، وإلتحق بأمي "حليمة".

"تحية إلى روحيهما"

شكراً عزيزتي نارين، أبي كانت لديه وصية.

"الموت فقر، والموتى فقراء، حتى إنهم لا يأخذون وصاياهم معهم.

نعم.

أعرف أنك لا تعلمين، ولكني سأقول لك، أبي كان يقول دوماً "في الحرب، فُرص الموت أكثر من فرص الحياة. والدنيا حياة وموت. وصيتي، إذا متّ، أن تنقلوا جثماني على نقّالة وليس في تابوت، وأن تدفنوني في مكانٍ عال كشاخكي[1]". ولكن "منجول" لم تنفذ وصيته.

"ربما لأن منجول نفسها منغلقة وواطئة"

وربما أيضاً لأنها محتالة مراوغة.

في زحمة المشيعين حول المقبرة، أحسست أنني مدعوّةٌ غريبة في مناسبة بلا موعد، فقط أعرف أبي، وهو الآخر ملفوف بالكفن، فيما الرجال يهيلون عليه التراب بمجارفهم. تراءت أمام عينيَّ صورته، وهو يحمل مجرفته ويتسلى بسقي الزرع في بستان حوشنا. مع انطلاق صوت التلقين جفلت، درتُ حول رأسه، وكأنني في حلقة الدبكة، ثم حول شاخصة قبر أمي "حليمة"، وددت أن أحلّق، لكن جناحَي ارتطما بشاخصتي القبرين، وهويتُ على وجهي.

❖

---

[1] شاخكي: أحد أحياء مدينة دهوك، يقع في سفح جبل دهوك، في منطقة عالية تشرف على المدينة. كان- حتى بداية التسعينيات- يضم مقبرة فقط (بالاسم ذاته)، وكانت تقع خارج المدينة. ولكن بعد الانفجار العمراني في المدينة، بعد انتفاضة ربيع عام 1991، أصبحت تقع داخل المدينة، وبُنيت قربها أضخم وأفخم الفيلات والقصور. ولذلك، أطلق أهل المدينة اسم "حي الملايين" على الحي الجديد.

كـلٌّ أخـذ حقـه: أمـي بلغـت نهايتـها، أبي لحـق بـأمي، ثم ستـصل "منجـول" قمـة الظلـم والحقـارة. وبفـضل أبي، سـيكون المـيراث كلـه مـن نـصيبها: الـدار، الراتـب الـشهري، قطعـة الأرض الـسكنية الـتي ترتفـع قيمتها يوماً بعد آخر، وجسور العلاقات والذكريات الجميلة. مع ذلك، لم تكـن هانئـة، كانـت تـشعر أن ثـروتي أكـبر، لأنـني كنـت مـا أزال فتـاة، طاهرة ونقية.

❖

عبارات التعزية والمواساة وسيل الدموع كانت ملاذاً لمنجول، فيما كـان الـصمت ينجدني فـألوذ بـه. هكـذا كنـت أتـصور، لكنـه انقلـب علـيَّ هـذه المـرة واحـتلّني. كانـت أجـواء تمـوز حـارة، لكـنني كنـت أشـعر بـالبرد وكـأن الميـت أنـا، ولـيس أبي. دمـي يتخثـر، وقـشعريرة بـرد تجتـاح جـسمي. كانـت ضـفيرة شـعري تبـدو كـأفعى سـوداء علـى كتفـي، لا تـدع أحـداً يقتـرب مـني، رغـم أن هيـئتي كانـت تبـدو كهيئـة رجـل؛ إذ كنـت أرتـدي قميص والدي الأسود المقلم، وأشد رأسي بكوفيته المرقطة.

يُقـال إن الـصمت علامـة الرضـى! ولكـن سـكوتي- ذلـك اليـوم- كـان علامة شيء آخر كنت أعلم أنه ليس خيراً على أية حال. ولكني لم أكـن أعلـم أن بعـض الـصامتين- مـن أمثـال "منجـول" و"الرجـل" محمـد مَيْـري[2]- سيعملون على كسر قيود الصمت، ويعلمونني الكلام.

---

[2] محمد مَيْريَ: من الشائع جداً في كردستان أن يُكنى الرجل باسم والدته، إن كان غير متزوج؛ أو باسم زوجته إن كان متزوجاً؛ وأن تكنى المرأة باسم زوجها.

الرجُـــل

في مساء نفس اليوم، وعلى أحد أسِرّة مركز إسعاف الحالات الطارئة في مستشفى آزادي- يومها كان له اسم آخر- فتحت عينيَّ الذابلتين كجريح أفلت من كمين نصبوه له، ممددةً على سرير أبيضٍ غادرته النظافة، رأسي باتجاه الجنوب وقدماي صوب الشمال، وبين الفينة والأخرى تأتي ملائكة بيضاء، ولكن بلا أجنحة، لترطب عنقي وجبهتي بالماء، لأن حرارة جسمي كانت تبلغ اثنين وأربعين درجة مئوية.

لقد قلتُ بأن عاقبة صمتي لن تكون خيراً. ويبدو أنني قد أُغشي عليَّ في المقبرة، ووقعت بين أقدام المشيعين، فبادرت جارتنا "مَيْريَ"- وبمساعدة "الرجل" لا سامحه الله- ونقلاني إلى مركز إسعاف الحالات الطارئة.

نارِين عزيزتي، ليس من عادتي أن أدعو على أحدٍ بالشر، ولكن إثم ذلك "القواد" أكبر حتى من خطيئة إبليس. بعد أن فتحت عينيَّ واستعدت بعض وعيي، قبَّلتني "مَيْريَ" في جبيني، وبكل عطف وحنان أمي

"حليمة" أخذتني في حضنها، وبدأت تسرد لي دقائق ما حصل لي في المقبرة.

كانت "مَيْريَ" امرأةً عاقرًا. ورغم أن عمرها قد ناهز الثالثة والخمسين، إلا أنها لم تقطع أملها في الإنجاب. كانت تقصد على الدوام مزار السادة والأولياء الصالحين، وبخاصة مزار الشيخ "سعدي البالقوسي"، كانت امرأة محترمة ومحبوبة، وكانت شخصيتها المتوازنة تفرض احترامها على كل من يعرفها، وبالخصوص نساء الحي المعمِّرات، ربما لأنها كانت تمثل أنموذج المرأة الصابرة المضحية.

وفي ليالي السمر، في حديقة منزلنا، كان أبي يقول لها دون تكلف "لا تتصوري أن هناك أحداً منا بلا ذنوب، ولكن ذنبكِ أكبر من ذنوبنا جميعًا، لأنك اقترنت بهذا الرجل". كما أنه لم يكن يقول لـ"الرجل": اللعنة عليك، إنما يقول له: مقابل كل رغيف خبزٍ تتناوله، تصدَّق بعشرة من أجل "مَيْريَ" ما دمتَ حياً.

❖

اتصلت "مَيْريَ" هاتفياً بالـ"الرجل"، وطلبت منه أن يتهيأ لكي يعيدنا بسيارته إلى البيت. وخلال مسافة الطريق إلى حي "كري باصي"، قال ألف مرة "أنا في مقام المرحوم والدك"، رغم انه كان يلتهمني بنظراته من خلال مرآة السيارة. كان إحساسي يقول لي إنه يكذب، لأنه كان دائماً يتمنى أن يظل أبي بعيداً، ليخلو له الجو مع "منجول". كانا يلتقيان ووالدي لا يزال حياً يُرزق، مرة تحت السقيفة على سطح قصره الشرقي

الطـراز، وأحيانـاً أخـرى في دكانـه الـذي كـان يبيـع فيـه مـواد الحـصة التموينية، بعد أن يُنزل باب الدكان من الداخل. وهو مثله مثل الكثير من رجـال هـذه المدينة، زير نـساء سيئ النيـة، أحياناً يقف في مدخل الدكان كالحراس، وهو يمسح ببصره سيقان وأرداف المارات من الفتيات والنساء؛ وأحياناً أخرى يجلس متربعاً على كرسيه الخشبي كرئيس إحدى جمهوريات الشرق، يرفع صوت الراديو، ويتبادل الغمزات مع أطياف المارة. يعرف كل بنات ونساء الحي، ويدرك أن أقصر الطرق إلى قلب المرأة هو الكلام الجميل، لذلك فقد كان يمتلك لساناً طرياً، وبكلمتي "نعم" و"بلَى" السحريتين كان يتودد إليهن، وخاصة الأرامل والفتيات المراهقات.

كنت أكره كليهما، "منجول" و"الرجل". كنت أخاف منه، وأخشى علـى منجـول، لكنـهما كانـا هـائمين لا يعيـان مـا حولهمـا، وبخاصـة "منجول"، كمـا لـو كانـت عانـساً تتحـرق للحـب. كنـت أعتقـد أن علـيَّ واجباً تجاهها، فهي- مهمّا يكن- زوجة أبي. ورغم أن سني كان صغيراً، ولا يؤهلني لإسداء النصح، إلا أنني أحياناً كنـت أقـوم بمـا يمليه علـيَّ واجبي الأخلاقي، فأُخبرهـا أن "(محمـد مَيْـريَ" رجـل سيئ الـسمعة في الحـي، وأن النـاس مرتـابون في نوايـاه وأغراضـه، وخاصـة فيمـا يتعلـق بتعاملاته مع النساء والفتيات. وكنت أشير في حديثي معها إلى أن أبي لا يطيقه ولا يرتاح إليه، لأنه زير نساء ولعوب، وليس أهلاً للثقة؛ لكن "منجول" كانت تمسح بي الارض، فتجعلني خرقة نجسة حيناً، وتجعل منه ولياً صالحاً يستحق أن أُذبح قرباناً له، حيناً آخر.

ولكي تدافع "منجول" عن نفسها، فقد بادرت إلى الهجوم. عندما كان والدي يعود إلى البيت في استراحة نهاية الأسبوع، يومي الخميس والجمعة، كانت تتزين كعروس في ليلة زفافها، ولا تدع لأحد الفرصة للقائه. كما أنها كانت تحاول القيام بدور الأم الرؤوم الملتزمة، فتنصب شباك حيلها وألاعيبها، وتقول لأبي مراوِغة "مريم أصبحت صبية يانعة، أنا في مقام أمها وأخشى عليها. ومن واجبها أن تطيعني وإلا فإنها ستتعرض للكثير من المشاكل".

لكنها لم تقل كيف سيحدث لي ذلك. غير أن كلامها سرعان ما استقر في رأس والدي؛ لذلك فإنه، وقبل أن يغادرنا في كل مرة، كان ينصحني بقوله "بنيتي، افعلي ما تقوله لك منجول، إنها في مقام أمك، وهي تخشى عليك. وإعلمي أن كل ما تقوله هو لمصلحتك".

كانت "منجول" تعرف كيف تجعله يفهمها، أما أنا فلم أكن أعرف كيف السبيل إلى ذلك، أو ربما لم أكن أجرؤ، لأنني كنت أخشى من العاقبة. لكني أدركت ـ بعد فوات الأوان ـ أن الخوف قد فوَّت عليَّ الفرصة، وأن الوقت أدركني. الخوف لا يمكنه أن يملأ فراغ الحياة.

قبل أن يودعنا أبي الوداع الأخير، كانت معلوماتي عن تصرفات "منجول" وتحركاتها شحيحة، لكن شكوكي كانت كبيرة. أمَّا بعد رحيله، فقد ازدادت المعلومات، وقلَّت الشكوك. وسجل قاموسي كمية لا بأس بها من كلمات ومعان ومصطلحات جديدة، مثل: التردد، الصمود، الموقف، المسؤولية، الحرص، والتضحية. يومها لم يكن حولي إنسان مخلص مجرِّب يضعني في صورة ما كنت أشعر به من أحاسيس،

وأمرُّ به من موقف في حياتي. لذلك غَدَت سن الثالثة عشرة مفترق طريق العمر، والعمر غدا خسارة. اسمي بقي كما هو، لكن الدماء والملامح تبدلت، تفتَّح برعم صدري، وبدأت الاماكن الحساسة من جسدي تكتسي بطبقة رقيقة من زغب أسود. أفكاري تعلمت الطيران كأفراخ عصافير، ولو بارتفاع منخفض. فقدتُ الشعور بالتآلف مع الأطفال، لأنني كنت أُفضِّل صحبة قريناتي من الفتيات والنساء أكثر. لكني لم أسلم من استهزاء وسخرية "منجول" ومثيلاتها من ثقيلات الظل، لأنهن لم يستطعن قبول التغييرات واستيعابها.

وكانت مسألة التغييرات الفسيولوجية صعبة جداً، حيث لم أتمكن من التأقلم بسهولة وسرعة مع أعراضها الجانبية، وخصوصاً موضوع الدم والغثيان والانطواء والضجر. وكنت وقتها أحوج ما أكون إلى الأم، ساعتها فقط أدركت أن أمي قد تركتني مبكراً.

ومثل لاجئي عقد التسعينات من القرن الماضي، رحت أبحث عن مأوى آمن وهادئ، ولكن دون أن أتجاوز حدود الجغرافيا. سكنتْ حركاتي، كنت أود الحديث عن حالي، لكني لم أكن أعرف كيف أُعبر عن ذلك؛ فلا أنا أحظى بفرصة التحدث في ذلك لأحد، ولا أحد يريد أن يشعر بي. وكردَّة فعلٍ طبيعية، بدأت أجرُّ بعض الخطوط والشخبطات على أغلفة كتبي ودفاتري المدرسية. ثم نادى صوت غريب في أذني، قال: "مريم، ليس فقط الحروف، إنما الألوان والخطوط والشخبطات أيضاً بإمكانها أن تصبح لغة، وخاصة للنفس". ومن يومها، وأنا أتساءل مع

نفسي "تُرى كيف عليَّ رسم الأشياء، هل كما أراها أو كما أفكر فيها؟".
وما زلت أجهل.

"بابلو بيكاسو يعرف يا عزيزتي مريم"

زمــنٌ آخر

بعـد أن أوصـلنا "الرجـل" مقـصوفُ الرقبـة إلى حـي "كـري باصـي"، أخذتني "مَيْريَ"، من طيبة قلبها، إلى بيتهم، لأنها كانت تعلم أن بيتنا، الـصغير أصـلاً، يـضج بـالمعزين الآن؛ طبعـاً كـان معظمهـم مـن أقـارب "منجول" ومعارفها. كانت "مَيْري" تحاول أن ترد بعضاً من معروف أمي عليها، جهزت لي فراشها الخاص، مدَّدتني إلى جانبها، وأخذت تربت على ظهري حتى غرقت في النوم.

وذهبتُ إلى زمن آخر:

كانـت الـدنيا ربيعـاً، الأرض اتـشحت بـرداءٍ أخـضر مُـزين بأزهـار وورود ملونة، خرير الماء وصوت انسياب الشلالات المختلط بأصوات تغريد طيور القبج وزقزقة العصافير وغناء البلابل والشحارير كان يُسمع من كل جانـب. وكنـت أتجول في تلك البساتين والرياض حافية، وهي تبدو كجنات عدن أو حدائق بابل المعلقة. كان المطر ينثال، ويلتمع ماؤه

على الاوراق والحشائش وأطراف جسمي. وبعد أن التصق ثوبي الأسود بجسدي بفعل المطر، بدت تضاريسه كما هي، وخاصة برعما نهديَّ اللذان كانا يبدوان كحبتين ملتهبتين برزتا من صدري. كان قوس قزح- المتشكل بفعل أشعة الشمس المنسربة من خلال الغيوم المتفرقة- قد بلغ أوج جماله. من يومها عرفت أن لوناً واحداً بمفرده لا يمكنه التعبير عن الجمال كله.

تحدث قوس قزح معي بلسان تلك الألوان، قال "هاتِ يدك!"

فردْت ذراعي، فتلقفني قوس قزح مشدوهة، ورفعني رويداً رويداً. وما عدا خوفٍ لذيذ وموثوق به، لم يكن هناك شيء آخر يمكنني أن أتعلق به. حلقتُ فوق حقول القطن الأبيض الناعم. وفي ذلك الارتفاع تفتَّحت وردة وجهي، تشبعتْ روحي بالدلال والغزل: تخللت أجواءُ البرودة نفسي الحرَّى، تيارات الهواء دفعت خصلات شعري بعيداً، حيث كان ترقد على ردفيّ، ضيع خط الأفق البعيداًالقريب نظرات عيوني، وتاهت في منتصف الطريق إليه. ولشدة فرحي تعثرت؛ ولكن بدلاً من أن أتوارى كظلٍ في حمرة المغيب، رحت أتهاوى إلى الاسفل. وهناك في الأسفل، اتجه نحوي شخص عجيب وغريب، ساقاه من ماء، بطنه من تراب، رأسه من ريح، ويداه من لهب؛ وبيديه أخذ يعرِّيني، دون أن يحرقني، ثم غسلني بالألوان. تحركت أحشائي، فأدركت أني حبلت بالألوان.

نارِين، لم أستطع أن أُبلغ أحداً بالأمر، حياءً من ناحية وخوفاً من ناحية أخرى.

جفلت من نومي على سرير "مَيْريَ" الحديدي، وطار النوم من عيني. لا جنة عدن، لا حدائق بابل المعلقة، ولا الشخص الغريب العجيب؛ فقط مغارة رطبة و"الرجل". وهو الآخر شد تكّة سرواله، وأسرع نحو الباب.

❖

في نفس الليلة انتابتني الحُمَّى، ساخنة تارةً وباردة تارةً أخرى. وفي هذه المرة، وجدت من يأتي لنجدتي. صحيحٌ أن لساني كان قد فقد النطق، لكن عينَيَّ كانتا تتكلمان وتقولان كل شيء. لا أحد بإمكانه أن يتقبل الفكرة، ولذلك أيضاً لم يكن في مقدور أحدٍ أن يفهم، ومن لا يفهم لن يصدق أبداً.

كنتِ تخالين أني أكافح الموت في النزع الأخير، في انتظارهم ليبرئوا ذمتي. جلست "مَيْري" قرب رأسي، وأخذت تمسد يدي ويبدو عليها الشك؛ أما "منجول" فجلست بفضول على حافة السرير، وهي تحسب عليَّ أنفاسي، فيما "الرجل"ـ الذي بدا كشاهد تحت القسم على قول الحقيقةـ قاتله الله، قرر الصمت في اللحظة الأخيرة.

لم أكن أعرف كيف يمكنني أن أُفهمهم حقيقة ما حدث لي، وبخاصة "مَيْريَ" المتعاطفة معي.

بعضهم كان في انتظار موتي، وبعضهم الآخر كان يأمل في عودتي للحياة. وأنا أيضاً، بين الموت وعودة الحياة، كنت في انتظار أمي "حليمة" لتأتي وأقول لها الحقيقة. لكنها عندما جاءت، وأخذتني في

حضنها، شعرت ببعض الخوف والخجل، وددت لو أتحدث، أقول شيئاً، ولكني انفجرت باكية كبركان، وما عدتُ أرى أحداً حولي.

كنت قد رأيت الدماء قبل ذلك أيضاً، ولكن فقط دماء الخرفان، وهي تُذبح في صباحات أعياد الفطر والأضحى وحفلات ختان الأطفال. أيامها، كنت أنزعج، ولا أتألم. اعتقدتْ "مَيْري" أني حائض، لذلك حاولتْ طمأنتي، وحاولتُ- من ناحيتي- أن أسرد لها وقائع حلمي؛ ولكن بسبب وجود "منجول" بأذنيها المفلطحتين، لم تُتح لي الفرصة. لم أكن أعرف أنها تعلم مسبقاً ما جرى لي.

وبسبب الدماء والعرق الغزير نتيجة الحمى الساخنة والباردة، كانت مَيْريَ تبدل- بين الفينة والأخرى- ثيابي، وكذلك شراشف السرير والوسائد. من ناحيتي، لم أدع لها الفرصة كي ترى عورتي، لأنها كانت متورمة، ولن يفوتَ امرأةً مجربة مثلها أن تدرك أن هذه المنطقة لا تتورم بفعل الحيض. كانت مَيْري على نيَّاتها، كما يقال، ولذلك اتصلت دون قصد محدد بمنجول لترعاني. لكن منجول استغلت الفرصة، وأودعتني بين يدي "الرجل". لم أفهم السبب، لكن منجول أكدت لي أن "الرجل" بيده أمر التسليم، وسوف يقرأه علي.

كنت أشك في مسألة التسليم تلك، ولكن مَن كان يجرؤ على الحديث عن الشك؟ لم تكن قضية الشك تولد انطباعاً سلبياً وحسب، بل كانت تعتبر من الكبائر.

جهزت منجول على وجه السرعة طشتاً وإبريق ماءٍ ساخن، إضافة إلى قالب صابون "حلبي" ومنشفة وردية. غسل الرجل أمام عينيْ منجول، قصداً، يديَّ والساعدين، وقدميَّ والبطتين، فركها وضغط عليها، ثم جففها بالمنشفة. لا أدري لماذا. ولكن عندما كنت أنظر في عينيه، كنت أتذكر السلعوة في أساطير وحكايات جدتي في ليالي الشتاء الطويلة. كان يردد- بين الفينة والأخرى- لفظ الجلالة واسم النبي، ويقرأ عليَّ آية الكرسي. قرَّب فمه الذي بدا كماسورة ماءٍ محشورة من أذني، وقال "انطقي بالشهادة"؛ وكأنني كافرة، وهو يحثني على إشهار إسلامي.

الآن بلغ عمر "الرجل" الثامنة والستين، ولا أحد يعرف، لحد الآن، كنهه: أحياناً وليٌ من أولياء الله الصالحين، وأحياناً أخرى ساحر مشعوذ، حتى حضرة سيدنا "موسى" لا يستطيع أن يجاريه في ذلك.

"يبدو أنه لم يكن قذراً فحسب، بل وقبيحاً أيضاً"

قبيح فقط! صحيح أنه خلقة الله، ولكن الكريهين من أمثاله نادرون. لا أفهم كيف قبلت به مَيْريَ الجميلة. في البداية، كنت أعتقد أنه مثل أبي وكثير من الرجال، إنما يحلق شعر رأسه بالموسى بسبب الحر والتعرق؛ ولكن بعد أن نزع كوفيته عن رأسه تبين لي أنه أقرع، ليس فقط أقرع، وإنما أقرعٌ أمرد.. وعندما كان يجلس، كانت حوصلته تتدلى مثل ديك الحبش، وكرشه يهتز كقِربة عن يمينه وشماله.

أتعلمين، هو لم يكن يعمل التعاويذ والرقى فقط، لكنه كان يقوم بأفعال أخرى أيضاً: كان باستطاعته أن يجعل الأحذية تتراقص، ويحوِّل

لـون المـاء إلى أحمـر، ويكـسر أقـداح الزجـاج بنظـرات عينيـه. في البدايـة، صدقت كباقي أهل الحي ما كان يجري، لكني عرفت بعد ذلك أن خلط بيكربونات الصوديوم مع الحليب يعطي لون الدم. وكسر الأقداح ربما كانت له علاقة بقوة النظرات، وربما لم يكن الأمر كذلك. أما فيما يتعلق بالأحذية، فلا أعتقد أن الأمر خارق، لأنه لم يبق شيء في هذه البلاد لم يجرِ ترقيصه.

السنة الحاديـة والعشرون

كنت أؤمن بالزمن إيماناً راسخاً، وكنت آمل أنه سيجد لي حلاً ما؛ فنحن الاثنين أحياء ونستطيع أن نفهم بعضنا.

"أنت والزمن!"

نعم، أنا والزمن. ولكنه للأسف استحال هو الآخر ذكَراً، واصطفَّ إلى جانب "الرجل" وملك الجان الأكبر. بالأسئلة كنت أُطيل عمري: في بلاد الشرق- التي لا شروق فيها- تُرى كم ملك كبير للجان فيها، وكم من ملك صغير؟ كم مريم فيها؟ وكم من أمثال "الرجل" هناك؟

ولو كان في السنة الحادية والعشرين، كما كان هو يقول، فإنه سوف يطرد سلطان الجن من جسمي، ولكن من يستطيع أن يطرده هو بعد أن ختم عذريتي بالشمع الأحمر؟ فـ"الرجل" لم يتركني بلا غشاء بكارة وحسب، بل ولم يُبق على أي شيء جميل: الأحلام، الرغبات، الاسم، التاريخ، الصورة الجميلة للمجتمع، دمرها كلها مرة واحدة.

كان أهل الحي يعتقدون أن "الرجل" شخص مؤمن، تقي من أتقياء الله. ولكن الحقيقة، الحقيقة البسيطة، كانت غير ذلك. ربما كانت أفعال الإنسان، إلى حدٍ ما، تعكس شخصيته، ولكن عدا الأفعال فهنالك الكثير من الأشياء التي يمكن أن يُعرف الإنسان من خلالها.

"مثل ماذا يا مريم؟"

مثل: ألوان الملابس، أصناف الأكل والشراب، عتبة البيت، الجلوس والنهوض في المجالس، طريقة النظر إلى الشخص المقابل، إضافة إلى الأسئلة؛ فنوع أسئلة المرء كفيلة بأن تعرِّف به. على أية حال...

الإنسان لدينا يُعرف، على الأغلب، من خلال أفعاله. ولكن مع ذلك، فلم يتمكن معظم الناس من معرفة "الرجل"، لأن أفعاله كانت تجري في الظلام.

"بمعنى أن الناس كانوا يرون ما يظهر من أفعاله في المسجد، أما أفعاله تحت السقيفة، وخلف باب دكانه فلم يرها أحد"

هذا بالضبط ما قصدته يا نارين.

أحياناً أُمنّي النفس وأقنعها، وأواسي قلبي وأقول: ما يزال هناك مخلصون في هذا البلد، لو علموا بالأمر فلن يتركوه، لأنه يقال "مسألة الشرف والناموس قد تتقادم، لكنها لا تُنسى". ولكن سرعان ما أجفل وأقول "كلا! هم سيعملون على فضْحِك".

"ربما، لأنه ليس مستبعداً أن كل مخلص من أولئك يُؤوي في داخله "رجلاً" صايعاً، وهو مضطر إلى حمايته"

نارين، "الرجل" قتلني مرة واحدة، وعلمني شيئاً فشيئاً التعود على آلام القتل؛ ولكن المجتمع وأولئك الذين يعتبرون أنفسهم مخلصين ومدافعين عن الناموس- بلا أباليتهم وانعدام غيرتهم، بخوفهم وتعبيرهم الأجوف- يقتلونني كل يوم. مثل هؤلاء انتهازيون، حريصون على مصالحهم الشخصية فقط. هم موجودون في كل مكان وزمان، ولكني أتصور أحياناً أن وجودهم جاء نتيجة خلل في بعض معادلات الطبيعة. أصبحوا تجاراً بفضل الفقراء والمعوزين، ويتطفلون دوماً على دمائهم وأرزاقهم. أنا شخصياً لا أخاف منهم، لأنهم دون ذوات، صغار وأقزام، ما عدا ألسنتهم وأذنابهم، فهي طويلة. بلا شخصية وموقف، قدرهم ومصيرهم مرتبط بالسلطة، وليس مهمًّا ما هو لون السلطة، أسود أو أصفر أو أخضر أو دون لونٍ حتَّى، المهم أن تقفَ إلى جانبهم وتداريهم.

"بمعنى، من يتزوج أمهم يغدو أباهم!"

نعم!

نارِين، في الحقيقة أنا لا أخاف منهم، إنما أشفق عليهم. ومجتمعنا هو هذا الذي ترين، يحاصرني، يخفف من وطأة حمل "الرجال"، ويزيد من وطأة حمل الـ"مَرْيَمات". تمنيت من كل قلبي، وما زلت أتمنى، أن ينال

"الرجل" عقابه، وأن تكون عقوبة جريمته بشكل عادل، وأن يقرر هو بنفسه تلك العقوبة. ولكنه إنسان جبان؛ ولهذا فإنه يخشى محاكمة نفسه.

"مريم، ولكن من ذا الذي يجرؤ على طلب الصفح، فكيف بمن يحاكم نفسه؟"

ولكن هل هم الذين صنعوا "الرجل"، أم هو الذي صنعهم؟ أنتِ لا تعرفين الجواب، وأنا أيضاً أجهله. لا أعرف هل أُحاكم "الرجل"، أم تربيته، أم حبه ونزواته البسيطة ولكن غير المشروعة؟ نعم، مَن الذي جعل السبل كلها مفتوحة أمامه، وأوصدها في وجهي؟ من الذي منحه القوة وتركني ضعيفة؟ من الذي يحميه؟

في خلوتي، أحياناً، أقول لنفسي: يجب أن أحاكم أبويَّ في قبرهما، لأن والدي علمني الحب والتسامح في هذا الزمن الرديء، وأمي فطمتني على الرقة والطهارة.

لا أنا أجرؤ على البوح بأسرار أحداث الظلام لأحد، ولا أحد يجرؤ على الاستماع إليَّ؛ هل تعرفين مِمَن يخافون؟

"مِمَن يا عزيزتي؟"

في البداية يخشون من ذواتهم الحالية؛ وفي النهاية من ذواتهم اللاحقة، لأن ذواتهم اللاحقة لن تشبه الموجودة حالياً. أنا كائن أنثوي، حملي ثقيل، لأن الجميع يتجه كلياً نحو الذكورة، وغشاء البكارة بات مقياساً للأنوثة، أصبح شرطاً للعذرية والطهارة والنقاء. ولكن لو كان

لكل فتحة في جسد الفتاة غشاء يغطيها، فهل تعتقدين أن فتاة واحدة في كل هذا الوطن كانت ستبقى سليمة؟

"أنا لا ألوم الفتيات"

أنا أيضاً لا ألومهن نارين. فتياتنا مسكينات، ولكني ألوم جنس الرجال، لأنهم يربطون الشرف بغشاء فقط، وهم أنفسهم الذين يفضُّونه. وكما ترين، فإن جميع لوحاتي تحوي شروخاً وأغشية، ولكن أحداً، لحد الآن، لم يسألني ماذا تعني تلك الشروخ والأغشية، ربما لأنهم يهتمون وينظرون إلى مستوى الشكل في اللوحة، وليس المستوى الروحي.

"إن لم يفهموا من خلال الألوان والكلمات، فكيف سيفهمون إذن؟"

ولهذا السبب، فإن معظمهم بلا صوت ولا صورة. الشروخ تنتشر في كل مكان، والثعابين العمياء موجودة في كل مكان، ولوحاتي تزدحم بالشروخ والثعابين؛ ولكن أحداً لم يتوقف عندها بعد. إذا كان في قلب كل إمرأة شرخٌ، فإن بين فخذي كل رجل يرقد ثعبان أعمى.

"إبكي عزيزتي مريم... إشبعي بكاءً..!"

لا تؤاخذيني يا نارين، فأنا أبكي بالنيابة عني وعنك وعن كل فتيات هذا الوطن. الليل والبكاء ينهكانني ولكني لا أُنهكهما. والليالي لا تجعلني أبكي فقط، ولكنها تسمح لي أحياناً بأن أرى أحلاماً جميلة أيضاً. منذ ثلاث وعشرين سنة وأنا ما أزال أرى الحلم ذاته: أرى نفسي طفلة مدللة

تعلمتْ الوقوف على قدميها تواً. ينادي علي والديَّ، فأقف على قدمي، لكنهما لا تعينانني على المشي.

❖

في اليوم الأخير من مراسم العزاء- يومها كانت سبعة أيام- استعدتُ قواي. أدخلتني مَيْري الحمام وغسلت جسمي، ثم أوصلتني إلى غرفتي الخراب. بدت لعيني كبيت مهجور، ملأى بالصراصير وأبو بريص ونسيج العنكبوت، فيما بقع الرطوبة والسواد تملأ حيطانها. لا أدري هل كان غبار الوداع أو غبار الفرسان الخياليين الذي كان يغطي اللوحات الملونة. كنت أستذكر غرفتي، وكأنني غادرتها لسبعة أعوام. ولم يكن يفصل بينها وبين غرفة مَيْري سوى جدار واحد، ولا تزال كذلك لحد الآن. كما أنني استذكرت كلاً من شارلي شابلن وأرستوفان أيضاً؛ كان الاثنان في انتظاري، وصورتاهما معلقتين في الحائط. كنت أعتقد أن الأول، على الأقل، سيجهش بالبكاء أو سيضحك، وأن الثاني سيصرخ في الرواق أو على سطح الدار، ويُعلم الناس بما يجري. لكن الاثنين بقيا صامتين عندما هتك "الرجل" شرفي. البائس كان قد أفهمني وزوجتَه مَيْريَ كذلك بأن سلطان الجن، الكبير، قد بعث قاصداً، وهو في انتظار الجواب.

أُصيبت مَيْريَ بالذهول وهي تنظر إليَّ صامتة مشدوهة. كانت تود أن تقول "هذا كذب"، لكنها لم تجد الفرصة سانحة. من جهة، كانت تخاف من "الرجل"، ومن جهة أخرى كانت تشفق عليْ. وبين هذا الشعور

وذاك، أصبح الصمت ورقة رابحة في يد "الرجل". قام بإخراج الجميع من الغرفة، لم يصدق حين اختلى بي، فأسرع وأوقد شمعة بيضاء. بنارها أوقد شموعاً ملونة كثيرة، ثم جاء بآنية البخور وعبَّأ كياني برائحة دخانها. وكأشبينة واثقة من نفسها جردني من ملابسي، وبدأ يلقي بعض النصح على مسامعي. مددني على ظهري، ثم عاد وقلبني على بطني، غطى جسمي بغلالة زرقاء قبل أن يبدأ بطقسه الآثم. أخذ يتلو بعض آيات القرآن الكريم، ثم يعطي تفسيره الخاص لبعض المشاهد منها، والتي ترتعد لهولها الفرائص، مثل حُفر النار، الأفاعي الضخمة الطويلة كجذوع النخيل، العقارب العملاقة كالثيران، وتعليق النساء من أثدائهن بالكلاّبات و....إلخ. كأن "الرجل" قادم لتوه من الجحيم، ويعرف كل شيء. كان يريد إفهامي أن هناك جهنم فقط، لأنه لم يتحدث عن الجنة مطلقاً.

كان يفرك ظهري ويمسده، وكنت أنظر إلى السجادة الفارسية الحمراء التي كان والدي قد جلبها كغنيمة حرب من مدينة "قصر شيرين"، حين كان جندياً خلال الحرب العراقية الإيرانية. وكنت أنظر أيضاً إلى السجادة الأخرى، وفيها ركزت النظر بشكل خاص على سيف ذو الفقار بيد الإمام علي. وكموقف، أقول: أنه لم يكن هناك فرق بينه وبين الاثنين الآخرين المعلقين في الحائط.

فجأة، وكريح عاصفة، أزاح "الرجل" غلالة الحرير عن جسدي، وقال لي: قرفصي على قدميك! ذابت خدودي خجلاً، شعور الخوف والحياء كقطبي سلك كهرباء سالب وموجب التقيا فجأة. لم أحترق، إنما

اجتاحتني القشعريرة. غطيتُ صدري بإحدى يديَّ، وبالأخرى غطيتُ ما أمكن من عورتي. تقاذَفَني كدُمية بين قدميه، ودار بي حول نفسه. وبلغة غريبة لا أظن أن أحداً غيره يفهمها، راح يتكلم مع الجدران؛ وبين الفينة والأخرى، كان يضع كفه فوق رأسي. مد يديه إلى ذراعيَّ أزاحهما إلى جانب، وجعل من ساقيَّ جسراً ضيقًا ولكن مرتفعاً، ثم وجَّه صدري إلى الحائط. وقبل أن يصلبني، أُصبت بالدوار، وانهرت بالكامل أمام قدميه.

"وبعد يا مريم؟"

بعد ذلك، أخذ يلملم بقاياي بكلتا يديه، ووضعني كتمثال بلا روح في منتصف الغرفة. أخذ ينظر إليَّ، ثم وضع يده على رأسي ومسد ضفيرتي.

"وفي الحقيقة، فضفيرتك جميلة جداً، سوداء وطويلة"

شكراً، وعيناك جميلتان أيضاً. أتذكر أن ضفيرتي كانت هكذا على الدوام، تصل حتى أعلى أردافي، لا أدري لماذا، ولكني لم أعمل ضفيرتين أبداً.

على أية حال! بعدها أنزل "الرجل" يديه على جسدي، ومن الظهر إلى الأرداف مررها حتى وصل إلى ساقيَّ، ثم استدار ووقف خلفي، وبدأ يمرر كفه على وجهي وشفتيَّ، عنقي وصدري، بطني وسرَّتي. وكاللص المحترف عندما يكسر زجاج الباب، ويضع يده بخفة على المفتاح، أوصل يده ووضعها على شعر عانتي. وفي النهاية، ولكي يبدو

الأمر مقنعاً، اعتصرني في حضنه قبل أن يقول "لقد عثرتُ عليه! الجن دخلوا إلى جسدك، ولكن لا تخافي؛ سأطردهم، ولو كان ذلك في السنة الحادية والعشرين".

كنت أشعر بالضياع، وأنا مجردة من ملابسي. ولكنه كان يريد أن أبقى تائهة. في تلك اللحظة، كنت أنادي على أمي ونادى هو على منجول. أفهَمَها أن رحلة علاجي ستستمر أربعين يوماً، لأن الجن الذين سكنوا جسمي كُثر، ويتطلب إخراجهم جهداً وعملاً كبيرين. كانت منجول تفهم تماماً ما يقول، ولكني لم أفهم. ثم قال لها بلهجة تثير الشكوك: "سلطان الجن، الملك الأكبر يقول: يتحتم على مريم بنت حليمة أن تسمع كلامكَ، وإياها ثم إياها أن تخالف رغباتك".

والسؤال الذي كان "الرجل" يود سماعه مني، سمعه من منجول: "ماذا تقصد بذلك أثابك الله؟". وكانت الإجابة حاضرة لديه مسبقاً: "ليس قصدي أنا، إنما قصد سلطان الجن. هو يقول: يجب أن يدخل إنسان معروف جسد مريم ابنة حليمة، ليستطيع إخافة الجن وطردهم، ولكن شريطة أن يكون من أولياء الله، وله اسم محبب إلى الله ومن خيرة الأسماء".

"من يرى "الرجل" يظن أنه إنسان غشيم"

نعم يا نارين، بعض المناظر تخدع البصر. ثلاثة عشر عاماً كانت قليلة ليكتشف المرء حقيقةً ما. ولكن ثلاثة وعشرين عاماً كثيرة جداً ليتمكن المرء من نسيان تلك الحقيقة.

الدارْسين

أربعون يوماً.. كنت خلالها، حسب أوامر "الرجل"، أتوضأ يومياً وألفُّ جسمي الأسمر بملاءة بيضاء، كأنني في مكة والمدينة أطوف بالحجر الأسود. في البداية، ترددت وكنت قلقة، لأن موعد دورتي الشهرية فات ولم أرَ الدم. ولكني هدأتُ بعد ذلك، لأن مقصوف الرقبة ملأ كل أنفاسي وفتحات جسدي برائحة البخور. كانت أرضي اليباب العطشى تتحرق شوقاً إلى مطر الرغبات الدنيئة. لذلك كنت، لا إرادياً، أود أن يرويها هو بين فترة وأخرى. هل تصدقين يا نارِين، في تلك الظلمات، استحالت شموع "الرجل" شمساً، وزغب جسدي كان كزهرات عباد الشمس؟

"أصدق وأفهم أيضاً، فقط الرغبات والغرائز هي التي تُضعف المرأة"

كانت تجربة طبيعية. ليست خاصة، إنما مميزة؛ لأن الرغبات المجنونة والمحمومة، في النهاية، علمت جسدي الفتيّ فعل الخيانة.

❖

انقطعت عني دماء الدورة الشهرية، فأدركت أنني حملت. ولكن هذه المرة ليس بألوان قوس قزح، ولا بعبث يديْ الشخص العجيب والغريب، إنما هذه المرة برواسب أسفل بطن "الرجل". ذهبت أيام وجاءت أخرى، وبدأت علامات الحمل تظهر على ملامحي ومظهري. توحمتُ على الدارْسِين. وكان من سوء حظي أن الدارْسين موجود فقط في دكانه. وكان ذلك الدكان قد تحول- بالنسبة لأغلب ساكني الحي- إلى متجر. كانت كل احتياجات النساء والصبايا موجودة فقط في دكانه، بحيث لا تعثر لديه حتى على السجائر، رغم أن زوجته مَيْريَ كانت تقول إنه يشعل سيجارته الأولى فقط بعود ثقاب.

"كان يختار زبائنه مسبقاً إذن؟"

نعم وبأستاذية.

في أشهر الصيف الثلاث، العطلة المدرسية، كان حملي قد بلغ ثلاثة أشهر، ولم يعد بالإمكان إخفاؤه عن أحد، وبالخصوص النساء المتزوجات. أُسقط في يدي، وما عدت أعرف كيف أتصرف.

كنت قد أصبحت شرهة إلى حدٍّ ما، وشهيتي لوجبات الأكل والشرب قد تضاعفت. كانت منجول تحاول إبقائي جائعة وعطشى

دوماً. ولياليَّ قد أصبحت مثل ليلة "يلدا" تأتي ولا تنقضي[3]. من غبشة الصبح، والظلام لم ينقشع بعد، كنت كالخادمة أتكور جالسة عند عتبة غرفة منجول إلى أن تستفيق وتعطيني ثمن الدارسين، بعد أن تُلوع قلبي. وكان حذاؤها قد تحول إلى اسطمبة لجبهتي التي لم تسجد لأحد. كنت أرتمي وراء مهد أخي كوفان أبكي، وأبكي على أمل أن يرقَّ قلبها عليْ. وكانت، حتى تعطيني ريالاً، تسلبني روحي. وفي النهاية، تأتي معي إلى الدكان وتقول للـ"رجل" زير النساء بكل صلف: "هلاّ تكرمت وأعطيت بعض الدارسين لهذه الشرهة، وابعث لي أيضاً بالقليل منه". بعد ذلك، سأعلم أن الدارسين كان بالنسبة لي هدفاً، ولكنه كان لها حجة فقط. ففي كل مرة، وبحجة الدارسين، كان "الرجل" يستوقف أحد الشبان في الزقاق، يهمس في أذنه، ويمد يده إلى جيبه، قبل أن يرسله في إثر منجول إلى بيتها. ذات مرة، قال لي بخبث: "منجول أرملة، لكنها ليست فولاذاً على أية حال". يومها لم أفهم قصده.

"كان رجلاً قواداً؟"

ربما، لكنه لم يكن يدع الآخرين يسرحون في مرابعه. كان الوضيع، في رمشة عين، ينزل باب الدكان قبل أن تبدأ طقوس الظلام. كان يمتص دمي كخفاش الليل. وكنت أنظر الى عِرق الدارسين، ولا أشعر بشيء آخر. تصوري يا عزيزتي نارين، أن طعم الدارسين كان ينسيني كل ألم. لكنه كان يعطيني القليل منه لأضطر إلى قصد مغارته ثانية. أحياناً كنت

[3] ليلة يلدا: ليلة في أواخر فصل الخريف، وتعتبر أطول ليلة في السنة.

أحـاول أن أكـون قويـة فـلا أدعـه يلمـسني، ولكنـه كـان يـديرني، كخـاتم فضي، في إصبعه. الوغد، عديم المروءة...!

"استمري عزيزتي مريم... افترضي أنك ترسمين لوحة"

ولكني أستحي حين أتحدث عـن تلك الوقـائع، ومـع ذلك لا أُخفـي عليك أنني أشعر بنوع من الارتياح، لأني أصبح قريبة من الحقيقة.

"وليس في متناول المرء دائماً أن يقترب من الحقيقة"

عـديم المروءة، كـان ينطلـق بي عـدواً، يفـرش كـيس الخيش الكبير ذا الخط الأحمر. وككل مرة، بعد أن يردد بعض الذِكْر والصلوات، يبصق تحت لساني، ويقول (تشهَّدي واسجدي....)؛ فكنت أهبط برأسي، فيما مؤخرتي ترتفع. يقف خلفي، ويبدأ يفرك ويمسد ظهري بيديه كمحدلة ثقيلة، إلى أن تلامس بطني وصدري أرضَ الدكان، والألم يجتاح عمود ظهري. كان يعتصر ردفيَّ بكفيه وينزل بهما إلى الأسفل. لكني لم أعرف لماذا كان يمد يده- بين حين وآخر- إلى زجاجة الفازلين! كنت أُطلق صرخة قبل أن يُطبق عليَّ ويتدلى حبل تكّته كحيَّة بين ساقيْ. كنت أتخيله شاباً من شبان هذه المدينة، ولكني حين كنت أستدير، كنت أصطدم بمرآى وجهه الأفعواني.

في المرات السابقة، وأنا مستلقية على ظهري، كنت أشعر ببعض المتعة، لأن ذلك كان يحرك في داخلي إحساس الأنوثة. ولكني وأنا جاثمة على ركبتيَّ، كنت أُصاب بالهستيريا، ويموت الإحساس لديْ. عديم

المروءة، كان يقترب بي من الموت كي أرضى بالحُمَّى. لا أدري لماذا تولّد لديَّ شعور غريب بأن من يمارس معي الجنس حيوان وليس بشراً.

وأعود إلى البيت تعبة منهكة في كل مرة، ولكن الشبان كانوا يعودون سعداء منتشين إلى رأس الزقاق.

❖

وبسبب الدارْسين، تكررت أحداث الظلام شهراً كاملاً كمسرحية مصرية. ولكن بعد ذلك، خفّتْ حدة الوحَم، وكذلك رواحي إلى الدكان، والأصح إلى المغارة.

منذ ذلك الحين، تحول كل دكان في نظري إلى مغارة، وصاحبها أيضاً إلى "الرجل". لم يطق "الرجل" صبراً، فأراد أن يواصل انتصاراته التاريخية في غرفتي؛ لكنه لم يجرؤ بسبب وجود زوجته مَيْريَ، حيث كنت ألتجئ إليها وأرتمي في حضنها، طلبًا للحماية، دون أن أذكر مسألة الدارسين، وسلطان الجن.

كانت الشكوك تساور مَيْريَ حول منجول. فقد كان يتناهى إلى سمعها ما يردده الناس حول زوجها، وكانت ترى بعينيها تصرفات منجول أيضاً. لذلك، ومع مرور الأيام، فقد ولدت الشكوكُ الخوفَ والتساؤل. هذه المرة، بدأت منجول تخاف مني؛ كانت تعرف أيضاً أنني أمقت "رجل"ها، وأن موتي في حديثي معه. ولكن لأنها امرأة، فقد كانت لا تحتمل نار الغيرة.

"سؤال عزيزتي مريم، يقولون إذا نامت المرأة مع رجل، فإنها لا تنساه أبداً؛ فإذا ما رأته ثانيةً- في أي وقت ومكان- فإنها تتذكره فوراً، وتشتاق إليه! هل صحيح هذا؟"

أنا لم أُحب "الرجل" لأعرف الجواب، إنما استطاع هو أن يفرض نفسه على وجودي، وأصبح حقيقة مؤلمة. لم أشعر مرةً واحدة أنني أنام مع رجل. ورغم مرور كل هذه السنين إلاّ أنه لم يتركني في حالي؛ مرة يأتيني كشبح، ومرة ككابوس، ويطوقني بحصاره.

أتألم بسبب ذلك، يضيق نفَسي ويغزوني عرق غزير. لم أشمئز من نفسي في المرة الأولى فقط، بل في كل مرة، لأن شيئاً من ذلك القبيل لم يدر في خلدي أبداً، وكان ذلك يجري رغماً عني. ولو أني نمت معه بإرادتي مرة واحدة فقط، لكان يمكن حينها أن أشفع له.

دعيني أنا هذه المرة أطرح عليك سؤالاً، ثقيل الظل، يا نارِين!

"تفضلي مريم"

ترى هل كان بإمكان "الرجل" أن يتصرف معي بشكل يمكنني معه أن أسامحه في يوم من الأيام وأُحبه؟

"قرأت ذات مرة أن الحبَّ يُصنع. مثلاً: إذا عاشت قطة أو سمكة مع المرء في بيته لفترة من الزمن، عندها يمكن للمرء أن يحبها"

يجوز. ولكن هذا ليس بقطة أو سمكة. إنه "الرجل".

سَمْيان وما أدراك ما سَمْيان

نارين: أود أن أصدق أن هذا الوطن ما يزال وطني، وهذا الشعب ما يزال شعبي. ولكن أسئلتي التي لا تجد لها جواباً يصيبها التوحش، تهيم على وجهها، وتتجاوز حدود الرغبة والتصديق. هذا البلد أيضاً فقد عذريته، ولكننا كنا، وما زلنا، نفتخر بأنه بلدنا، وهل هناك فرق بين الوطن والمرأة؟

في أوقات المحن، كان البلد بلدنا، والشعب شعبنا، ولكن- مع موجة الانفتاح والرخاء- ظهر له أصحابٌ جدد، وأصبحنا نحن الغرباء. الغربة للبعض تصبح وطناً، ولكن الوطن أمسى لنا غربة.

"كلنا أصبحنا غرباء"

نعم، كلنا أصبحنا غرباء. أنتِ في بلد اسكندنافي، ولكن أنا في وطني الذي بكيت من أجله دوماً. تريدين الحقيقة، نحن أصبحنا غرباء منذ زمن بعيد، ما دامت "الدار الآخرة هي دار البقاء". جئنا غرباء، وسنرحل

كـذلك. تأكـدي أن الآخـرين أيـضاً غربـاء، لكنـهم لا يـدركون ذلـك. صـحيح أنهـم يلتقـون بعـضهم، يـستمعون إلى بعـضهم ويتـأقلمون، لأن أجسامهم وملامحهـم ليست غريبة؛ ولكـن أرواحهـم؟ آخ يا نارين، من بقي في هذا الوطن ولم يشعر بغربة الروح؟ طبعاً هذا ليس سؤالاً أوجهه إليـك، ولـيس جواباً أجهزه، إنما هـو قـول أردده مع نفسي في لحظات خلوتي الليلية.

أسـئلتنا عاريـة وسـائبة، تتجـول مـع بعـضها علـى شـفير حـدود الممنوعات، رغم أنه في هذه البلدان المستعدة لكل شيء إلا الحرية، ليس فقـط الاطفـال والعـاطلون عـن العمـل متـوفرون بكثـرة، وإنمـا الأجوبـة أيضاً.

"ولكن من الذي يضع الأسئلة، ومن الذي يجيب؟"

كلما سألتِ سؤالاً شككتُ أنا في الأجوبة أكثر. مَن يضع الأجوبة، عندما تملأ رائحة المنافي مسامات أنفاسي، تمزق ستار الوحدة، توصل شقاء الفصول اللامتناهية إلى مستوى رؤية عينين كليلتين، تطفئ آفاق النفس وتشعل فيها نار الجحيم؟ لحظتها، يبقى الحب الكبير في ذاكرتي، والذنوب الصغيرة في ذاكرتهم. تُرى، لماذا لا يغفر الحبُ الذنوب؟

مَـن يـضع الأجوبـة حـين يغـني الإحـساس الهـائج أنـشودة الغيـب، وتصنع عجائز المهجر نعوشهن من الآمال المحطمة، وتزينها بزوج من ضـفائر حلاّبـات الـوطن الحـسناوات، وبـصوت متعَـب يغـنين مـوتهن؟ لحظتـها، يغـدو دجلـة بـلا أمـواج، تغفـو الـسمكات علـى سـطح المـاء،

والطحلبيات مثل سوالف شعر منجول تشدّها وقت التلقين، وتعلن لحظة الجفاف السرمدي لعطشي. لحظتها، أرى حدود البرزخ. ولكن، لماذا ليس هناك الجانب العذب الفرات؟

مَن يضع الأجوبة حين تجعل طواحين رياح اليأس "دون كيشوت" المسكين يبكي في حضني، ويتركون "ريمبرانت"* معلقاً على جدران المعابد بلا حول ولا قوة؟ لحظتها يُنسيني الهروب كل شيء، ويذكّرني بآخر أنفاس الحياة. تنفتح أبواب هولوكوست جديدة، عمود الدخان يعلو على قامتي، أصوات أنّاتي تتجاوز صدى صوت الحرية وعُمْرَ فساد ولاة الأمور، عديمي الضمير. وما عدا حفنة رمادٍ وحسرةٍ في رؤية الابن سيء الطالع الذي لم يولد بعد، ماذا يتبقى مني؟

أنا المُحِبة أخمِّرُ حب الخلود في بحر الشكوك. أهزم قوانين الجوع بالحبوب المُشهية على معدة خاوية، أنا المرعوبة أطرد بالتعاويذ ماردَ الخوف حين يرعى في مراعي فراغ عذريتي، وأحطم أسطورة ملك الجان في رأسي. وفي دموع الأطفال في مداخل الجوامع، أرى كل الأشياء المقدسة جريحة. لحظتها، تُزايدُ عليَّ الحياةُ الكئيبة والموتُ الذليل، يضع كلاهما يده في يد الآخر. ولكن مَن الذي يضع يده في يدي؟

نارين، لا أعرف لماذا، ولكن عندما تحكّني عيوني أتذكر أوديب!

"لا أعرف ماذا أقول يا مريم"

---

* "دون كيشوت": بطل رواية الكاتب الأسباني الشهير ثيرفانتيس؛ ورمبرانت: رسام هولندي من كبار رواد الفن التشكيلي في التاريخ. (المحرر)

أنـا أيـضاً لا أعـرف، ولا أعـرف أيـضاً مَـن سـيعطي الأجوبـة حـين تتساقط ذرات غبار حصان طروادة بدلاً من المطر. وفي منتصف ليالي خوفي وحرماني، يأتون بآيات من كتب تزدحم بالطلاسم والألغاز، وينفضون عنها غبار الشك، قبل أن يقرأوها عليَّ بألفباء غريبة؟ وينفر نهرُ دماءٍ من أنفي، وتتجمد آخر قطرة عرق على أديم جسمي الأسمر الأملس، وتذبل المشاعر عند عتبة قلبي، ويظل جسمي كما سفينة حضرة سيدنا نوح في انتظار الطوفان.

وتقترب النهاية، ينطفئ قنديل ليلِ مريم المدلهم. لحظتها، لن ترى هي أحداً، ولن يراها بعد ذلك أحد. بعدها، ما نفع العيون يا نارين؟ لحظتها، أعود فينتابني الشك: هل أنا مريم، أم مريم هي أنا؟

مَن يعطي الأجوبة حين تتبرعم همومي في الربيع، وفي الخريف حين تذرو الرياح أفراحي على بيادر العذرية؟ مثل شجرة دلب عارية، تنحني أغصاني أمام ريح الحسرات، يمتلئ حضني بأوراق متساقطة، أتعرى فتتغزل موجاتُ فجرِ "رجلٍ" صايع بنضح وعرقِ جسدي؟ لحظتها، تستحضر ذاكرتي- على الفور- صاحبة قصيدة "حائرة"، عندما تقول في تلك القصيدة:

"أتمنى من رب العباد وملك الأماني، لو أني حشوت فتحات جسدي اليباب برائحة عرق هامتك... وتغدو جبهتي تفاحة نيوتن ويديَّ أرضاً.. حينها يموت الجميع من الضحك، وأضحك من الموت أنا".

مَن يجيب على الأسئلة حين تقيس الأرض ظلي، وتكسر الرياح أجنحتي؟ حينها يكون التحليق ممنوعاً تارةً أخرى، ويغدو الأنين عرساً. حينًا تخبئ الحقيقة نفسها تحت أذيال ثيابي، وحينًا تمزق ثيابي، ويسيل اللعاب في كل موضع.

مَن يجيب على الأسئلة حين أُلبِسُ في الخلوة لوحاتي ثيابَ الموتى، ويغدو قفصَ صدري نعشاً للآمال والحسرات؟ حينها يكون السكوت لغةً والسكون زمناً. لحظتها فقط أدرك أن غشاء البكارة لا قيمة له، ويتردد الصدى من بعيد "لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها". وحينئذٍ، أفرح من أجل نفسي وأفخر بها.

❖

لست بحاجة لأن أُعلن موت أحد، لا. قلتُ لكِ قبل الآن: بين الموت وعودة الروح، أنا في انتظار أمي حليمة لأقول لها الحقيقة.. فقط أستطيع إعلان موتي أنا، ولكن الوقت ما يزال مبكراً لموتي. ولقد قررت ألاّ أموت بعد الآن.

أحياناً كثيرة، نسمع الكثيرين يقولون: نفتقد ميتة من الله، ولكني لا أقول ذلك، لأنه ليس ميتة الله هي التي تنقصني إنما هو بنفسه. من زواريب ذاكرتي الشائكة أُلملم جزيئات "الرحمن" و"الرحيم"، وأصنع منها نُصباً، فقط ليكون حقيقة شاخصة ويظل عالقاً في ذهني؛ أو لعله يجعل مشاعري المغتربة تألف قليلاً، ولكن "الجبار" و"المتكبر" يحسدانني على ذلك، لا يسمحان.

نارِين، ربما كان هناك متسع في قلب المرأة لأكثر من رجل، ولكن لا مكان لإلهين في رأسها، أنا امرأة، وأعرف ماذا أقول.

"إذا كان ورق الشجر لا يتساقط إلا بأمره، فكيف دفنك "الرجل" حية دون أمره إذن؟"

الليل طويل، ولكِ أنتِ الأخرى أن تتكأي جراحي بين الحين والآخر. اطرحي أسئلتك، لا ضير. ولكن أرجو ألا تنتظري الأجوبة؛ فأنا لا أستطيع الرد على أسئلتك، لأنني- أنا نفسي- ما أزال حتى اللحظة سؤالاً بلا جواب.

ربما كان أحدهم قد خلقني، ولكن خارج مملكته. أما أنا فلقد خلقت الكثيرين وفي داخل مملكتي، وهكذا، فخارج تلك المملكة، يتم اضطهادي، تُنتهك حقوقي. ولكن هم داخل مملكتي رائعون ونموذجيون، وهم موجودون دوماً لأنهم أحياء.

"مثل من؟"

مثل العديد من الأشخاص، على سبيل المثال: أبي، أمي، وكبدي (سَمْيان)....!

"ومن بعد؟"

لا أعرف يا نارين. ولكني أشعر أن هناك أشخاصاً آخرين من دون أن أعرفهم، أو يعرفوني. أنا واثقة أن أحلامي بسيطة ومشروعة، وليست

مستحيلة، فأنا لا أطلب امتلاك عصا "موسى" السحرية لأجتاز بها بحار الأحزان، وأُوصل همومي وشكاواي إلى الخيِّرين.

"ومن يقول أنه قد بقي فاعلو خير؟"

كل من كان غير مذنب فهو فاعل خير. ولكن هل تعتقدين أنه بقي أحد لم يُذنب؟ ها أنا ذا، أنا أيضاً مذنبة.

"لا، أنتِ لستِ مذنبة، إنما قد تكونين متهمة. فأنتِ لست ابنة الخطيئة، اسم أمك حليمة واسم والدك ديوالي، لا تحملي مِنّية أحد، أنت مريم، أنثى ولكن في زمن ذكوري. مُحِبة مكسورة الخاطر، كان مركب حبكِ يتجه صوب شواطئ الأمومة"

ربما كان صحيحاً أنني مُحِبة مكسورة الخاطر، ومركبي كان يبحر صوب شواطئ الأمومة، لكنه قبل أن يبلغ الشاطئ، توقف وغرق.

"غرق، ولكن أمواج الخلود أنقذتك"

❖

كما الآن، أشاح الجميع بوجوههم عني، حتى القلة الباقية من الأخيار أيضاً. وأنا في وطني، وجَّهوني صوب الغربة. حدوداً بعد حدود، ومدينة إثر مدينة، بحثت عن شبر من تراب الحرية، عن قطعة هوية، عن قُبلة بريئة، ولكن هيهات. كانت كل أُمنيتي أن يطبع رجلٌ، ولو مرة واحدة، قبلة على جبيني أو عيني، ويبرهن أنه ما تزال هناك قبلات بريئة. هل تعرفين مِمَن كنت أخاف في تلك الايام؟

"مِن الرجال؟"

أرأيت؟ حتى جوابك هو سؤال! كلاّ، في تلك الفترة كانت حرب الخليج الأولى في أوجها، وعَزَّ جنس الرجال، فالذي قُتل قتل، ومن جُرح جُرح، والمفقود أيضاً ترك وراءه فقط بصيص أمل ومحطة انتظار مؤلمة. كاد جنسهم أن ينقرض؛ أما البقية الباقية فكان معظمهم مريضاً، وغدا عالةً وعبئاً، وتحت رحمة وسطوة زوجته. لم يبق رجال لأخاف منهم، ولكني- أنا الحُبلى- كنت أخشى أن يأتي يوم لا أحصل فيه على قطعة خبز، فأغدو حينها كالكلبة المتشردة. حتى الآن، حين يقع بصري على قطعة خبز يعتريني شعور بالجوع والخوف. ورغم أن كليهما يبدآن بحرف مختلف إلا أن لهما القدرة على وضع نهاية لأشياء كثيرة، دون أن ينتهيا. كان يجب أن أتحرر من الخوف من لقمة الخبز والمشاعر الهائجة، أن أتحرر وأُغني لحريتي. ولذلك، رحت أرسم لوحات للحياة. ويبدو أنني لم أتعلم الغناء والرسم والحرية هكذا عبثاً، فأنا أستطيع أن أرى هذا الرب العظيم في أغنية، في لوحة، وفي الحرية.

في السابق أبي، والآن الله: في السابق، كنت أخشى أبي قليلاً، وكانت منجول هي السبب؛ ولكني- من ناحية أخرى- كنت أحبه. والآن، أخشى الله أيضاً بعض الشيء؛ وليست منجول وحدها السبب، إنما الجميع؛ ولكني أحبه هو الآخر أيضاً، لأنه يُقال إنه لطيف، غفور ورحيم، أي مثل أبي، الذي رأيته؛ ولكني لم أرَ الله بعد. وجود الشيء وعدمه ليس مهماً بالنسبة لي، ولكن المهم هو نوعيته؟ مَن يصدق أن خوفي يكفي مدينة بأكملها؟ أو أن محبتي تكفي كل الحاقدين؟ والقضية

ليست قضية إيمان، ولكني أشعر بأن الله موجود، وأتمنى أحياناً أن أقف في محرابه لأعترف بخطاياي، أرى ذاتي الضحية، ولكن...!

"ولكن ماذا يا مريم؟"

ولكن لماذا لا ترى "أنا" المنهكة "أنا" التائهة لحد الآن؟ آخ يا نارين، لم أبك منذ الليلة البارحة! أريد أن يطرق الله أبوابي في أوقات الشدة والمحن، كما كان يطرقها في أوقات الفرج أيضاً؛ أن يرتدي قميص أبي أو ثوب أمي الأبيض، ويأتي في غبشةِ صبح صامت، أو مساء متأخر، يأتي ويريح رأسي فوق كتفه أو فوق ركبتيه ويطبطب علي، لأنه عدا والديَّ، فلستُ مدينةً لأحد، فإن لم يكن لأجلي فليكن إكراماً لـ"سَمْيان"ي.

ما عدا الله وابني "سَميان" لم يعد لي أحد، والاثنان أيضاً لم يأتيا بعد... ماذا تقولين، هل أبقى في انتظار مجيئهما؟

❖

في تشرين الأول من عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثمانين، اجتاحتني حُمى التغييرات الفسيولوجية مرةً أخرى، هدت قواي. أصبحتُ ضجرة يائسة. كنت أخاف من كل شيء ومن كل شخص عدا نفسي، لأني كنت أشعر أني لستُ فارغة، في أعماقي تولد حياة جديدة. أخذت بطني تثقل أكثر، وكأن فيها جبلاً. فإن كنت لا أخاف نفسي، فالأولى ألا يخشاني أحد، أليس كذلك يا نارين؟

"أنت أدرى مريم، فأنت تعرفين نفسك أكثر"

ربما..! في الأيام الأولى كنت أشعر بالدوار، وأُصاب بالغثيان وأتقيأ. تصوري أني ما عدتُ أستطيع الجلوس مع مَيْريَ عند عتبة دارهم. ورغم أني كنت قد تركت الدراسة أيضاً، إلا أنني- وبحجة المدرسة- كنت أبتعد قليلاً عن عيون الناس. ولكن يومي كان يستطيل فيصبح أطول من أربع وعشرين ساعة. وبعد أن نجحتُ في الصف الأول المتوسط، رحت أهيئ نفسي، وكلي سعادة ورغبة، للصف الثاني المتوسط، ولكن ذلك لم يحصل. كل الحسرات تذهب إلا حسرة الدراسة، فإنها بقيت وما تزال تكبر يوماً بعد آخر. في هذا البلد، ليس فقط الأشياء الكبيرة تصغر، ولكن أحياناً تكبر الأشياء الصغيرة أيضاً. كان ذلك في بداية فصل الشتاء. وكما الغيوم، فقد كنتُ أنا أيضاً نصف فارغة ونصف ممتلئة، ضعيفة جداً. نحل جسمي كثيراً، ولكني لم أنقطع. اصفرَّ أديم وجهي وبات يشبه الصفار الذي يخلفه دخان السجائر على شوارب المدخنين. بعد ذلك، فكرت مع نفسي، وقررت أن أصمد وأقاوم، وأن أتمسك بالحياة من أجل "سَمياني" القريب البعيد.

لم أكن أستأنس لأحد سوى سَمْيان؛ فقد غدا سلوة روحي. ولذلك، فقد أحببت أن أسميه سَميان[4]. غدا "سَميان" حلم الوقت الضائع، النور الذي سينبثق في آخر النفق. كنت أنوي أن أربط به كل

---

[4] سَميان: تعني في الكردية راعي البيت، والمُعيل، وكبير العائلة؛ بمعنى آخر "عماد البيت".

أشيائي: أوقاتي، ليلي ونهاري، دمعي وابتسامتي، على أمل أن يعوضني عن سنوات حزني واضطرابي، وأن يتهيأ معي للأفراح والأتراح. كنت أود من كل قلبي أن يكون سَميان، ليس فقط بالشكل والملامح، وإنما حتى بالتصرف والأخلاق، مثل أبي ديوالي أو أمي حليمة، وليس مثل "الرجل" الصايع.

"عزيزتي مريم، يبدو أن قاسماً مشتركاً يجمع صور الثلاثة"

نعم، الموت!

وكنت دائمة الجوع، كنت أسرق رغيف خبزي الذي كان من كدح أبي. بعد انتصاف الليالي، أنسلُّ كالقطة أبحث بين الأواني والأطباق عما تبقى من العشاء، على أمل أن أحظى بقطعة خبز، فأشغل بها جحافل الجوع الكامنة خلف حدودي، على الأقل حتى شروق الشمس؛ ولكنها قبل أن تشرق، كانت تغرب ثانية.

نارين، كان الموت قد غدا أكبر أُمنياتي، ولكني كنت كالطفل الرضيع عندما يجفل في نومه، أجفل وأقول لنفسي: إذا مت، فإنني إنما أموت لنفسي، ولكني يجب أن أعيش لأنني حينها سأعيش لأجل سلواي "سَميان".

كانت الدنيا خاوية. ليس على وجه هذه البسيطة سوى الموت، الحياة، سَميان وأنا. تعلقتُ بأذيال الحياة، ولم أدعها تتركني. ولكن سلواي سَميان اختار سهواً الطريق الخطأ، تعلق بأذيال الموت.

ماذا عساي أن أفعل بكل هذا الموت؟!

الآخر

هل تصدقين أن أحداً لم يمت قَدْر موتي أنا، رغم أنه لا أحد مثلي يحب هذه الحياة؟ لقد رأيتِ حياتي، لكنك لم تري موتي بعد. أنا أعرف جيداً لماذا لا أريد أن أعيش، ولكني أجهل لماذا أريد أن أعيش.

اعذريني عزيزتي نارين، تحمَّليني لأنه ليس لديَّ غيرك يمكنه الإصغاء لي، أو يفهمني. فالحياة باردة وحالكة السواد، ولديَّ لها من الأوراق ما يكفي لحرقها، لكني لا أحرق أوراقي لأيٍّ كان...! في هذه اللحظات الدقيقة من هذا العمر الطويل بمآسيه، والقصير بأفراحه، أود أن أطرح عليك سؤالاً: كيف تنظرين إليْ، هل ترينني فتاةً أم امرأة؟

وربما لم يكن ضرورياً ولكني أود أن أساعدك في الإجابة: قبل الآن، وبين هذه وتلك، كنت آمل أن أصبح أمًّا، ولكن يبدو أن رجائي كان خطيئة أو حقاً غير مشروع؛ أو يبدو أن الأشخاص المقطوعين من شجرة لا يحق لهم أن يطلبوا الكثير. لهذا، ومنذ ذلك الحين، فإنني أقنع بالقليل.

ولكن، في الوقت نفسه، لا أُنقص من قدري، لأن روحي فيها من الشروخ ما يكفي لحيطان كل زنازين الشرق. والآن أيضاً أرغب أن أصبح شيئاً، ولكن شيئاً جديداً.

"كل الفتيات بإمكانهن أن يبقين كما هن، بمعنى أن يبقين عذراوات، أو أن يصبحن نساء؛ ولكن بين هذا وذاك، كان بإمكانك إن تُصبحي شيئاً خاصاً"

شيئاً خاصاً، أو مميزاً؟

"خاص أو مميز لا يهم. فالمهم في ذلك أن تشبهي نفسك لا أحداً آخر، أعذريني لصراحتي، ولكن اعلمي أن كل حياتهم بلا ستارة. مزقوا الستارة في كل مواضع تلك الحياة. عيونهم، آذانهم، فروجهم، وغرف نومهم كلها دون ستائر. ولكن بالنسبة لكِ، ثمة ستارة واحدة، غشاء واحد هو الذي تمزق، وليس أنت التي فعلت، ولكن ممثلهم هو الذي فعل. عزيزتي مريم، أرجو أن تعرفي نفسك، وألا تنسي تلك الحقيقة أبداً"

هل تعرفين أنه أمر غريب؟

"ماذا؟ غريب أن يعرف المرء نفسه؟"

لا. ذلك ليس بالأمر الغريب، إنه مستحيل. ولكني أقصد النسيان. لقد نسيت الكثير من الأشياء، ولكن هناك أشياء كثيرة أخرى ما تزال في ذاكرتي مثل: الموت، الأفاعي، الشروخ... وو!

"وماذا...؟"

وكرمانج.

"من هو كرمانج؟"

اصبري قليلاً، سأحدثك عنه أيضاً، ولكن في النهاية. كان مصوراً فوتوغرافياً عجيباً. ليت كل الأشياء تُرى بعدسة كاميرته، وخاصة الحقيقة. آه نارين! كم نحتاج إلى الكاميرا، ولكننا لا نعلم. بعد ستة وثلاثين عاماً بالتمام والكمال، وكل عام بستة وثلاثين عاماً مثلها، جاء لنجدتي؛ لكنه اختفى ثانية. بعد أن تتعرفي على كرمانج ستفهمين أكثر.

❖

نارِين، إن لم يفهم الإنسان نفسه فكيف سيعرفها؟ وإن لم يعرف نفسه، فكيف سيعرف ماهية أحلامه وأمانيه؟ كيف سيعرف آخرين غير نفسه؟ كيف سأعرف أنا نفسي، وكل واحد يناديني باسم مختلف، ويتعامل معي بطريقة معينة، ويتحاور معي بلغة مختلفة، ويحاكمني بتهمة مختلفة؟ للأسف: لا المقاتل البيشمركة، صاحب بندقية البرنو، عرفني أنا الكردية الوطنية، ولا الكافر صاحب الكأس عرفني أنا الملحدة، ولا الملاّ صاحب المسبحة عرفني، أنا المؤمنة. كرمانج فقط عرفني إلى حدٍ ما. ولأنه عرفني كإنسانة وكعاشقة، فقد طردته شرطة الرب والدولة.

هل تعلمين متى أعرف أنا نفسي؟ أنا سأجيب عنك: في لحظة من الزمن أعلم من أنا ومن أكون، أي أعرف نفسي. لحظة من الزمن

تستطيع أن توقف المرء ليراجع نفسه ويعترف، ويعرف ماهيته ووجوده. ولكن خارج هذه اللحظة الزمنية يحق لنا أن نسأل سؤالاً واحداً: من نحن وماذا نكون؟

كنت أقرأ الشعر والفلسفة بشكل مستمر، لكن قراءة الشعر والفلسفة لا توافق الأجوبة المعدة سلفاً. إن مأساتي ومأساة أية فتاة أو امرأة أخرى في هذا الوطن لن تنتهي بقراءة الشعر والفلسفة، إنما تعمقها وتجعلها أكبر. كلنا بلا حول ولا قوة، لأننا لم نتمكن من فهم مستوى مأساتنا. من حقنا جميعاً أن نطرح الأسئلة، ونترك محطات الانتظار خاوية، طالما ضاعت علينا السبل.

مَن يا تُرى مأساته بحجم مأساتنا؟ مَن عاش مثلنا البؤس والشقاء؟ من أمضى عمره في تلك المحطات كما أمضينا نحن؟ ولكن مَن مثلنا أيضاً ينسى بسهولة هكذا؟

نحن لم نعد نستطيع العيش بلا حدود. ولذلك فإننا نسوِّر ذواتنا، بمعنى آخر: نحن نُشظّي أنفسنا قِطَعاً. ولكن من حقنا أن نتقارب من بعضنا ونهنأ بالعيش قليلاً.

"ولكن حياة سامية بحجم تلك المأساة"

نعم! أحياناً ما أقول، ينبغي أن نكون تحت الاحتلال، لأننا حينها نمتلك خصوصية معينة، ولأننا سنعرف وقتها قَدْر أنفسنا أكثر، سنحافظ على مبادئنا وأحلامنا، ولن نضحي بالقيم الكبيرة من أجل أحداث ومعانٍ صغيرة. فعندما كنا تحت الاحتلال، كان كل شيء لدينا محبوباً

وغالياً: الإنسان، الوطن، المستقبل، الحياة والموت والشهيد. ولكن الآن، أيٌّ من هؤلاء ما يزال يحتفظ بحلاوته وقيمته؟ ومِن كل هؤلاء المثقفين والكتّاب والصحفيين الأغزر من رمال قيعان الأنهار، لم يستطع أحد منهم أن يعبِّر عن هذه المأساة، ومع ذلك لم يكسر أحدٌ منهم قلمه بعد.

أتمنى يا نارين، أتمنى من الله ومَلك الأماني أن تأتي هيروديت بمددٍ وتنقذني من هذه الأسئلة الملحاحة، فلتأتي ولتدوِّن قصتي مع رجالِ آخر زمن: كيف أصبحتُ عاهرة في معبد عشتار القرن الحادي والعشرين، فقط من أجل إرضاء قدري عديم الحياء ومجتمعي المتناقض مع نفسه.

ذات مرة قلتِ لي، إن الانسان الأوروبي يأخذ بزمام قَدَره ويسوقه أمامه.

"نعم، لأنه لا يؤمن بالقَدَر فقط، بل ويثق بنفسه أيضاً"

الإنسان الشرقي أيضاً لديه إيمان، إيمان بكثير من الأشياء، ولكن ليس بنفسه.

"لكي يثق الإنسان بنفسه ينبغي أن يثق بالآخر المقابل"

في الشرق، موطن الأنبياء والخلفاء، عاصمة الموت والفقر، مَن يثق بالشخص المقابل؟ الثقة أيضاً حق. ولو كانت موجودة لما كان هناك قتل واحتلال. تُرى هل بقي هناك شبر من أرض الشرق لم يتم احتلاله؟ الحب، الاحترام والدفاع كلها واجبات، وكلها غير موجودة في الشرق،

لأن الإنسان الشرقي لا يلتزم بواجباته، ولأنه أيضاً لا يثق بنفسه، ولا بالشخص المقابل.

أنا أيضا امرأة شرقية من ناحية الشكل والتكوين والتربية، لكني كنت وما أزال أؤمن بالآخر. كنت أحاول إقناع نفسي، إفهامَها بأن محمد مَيْريَ مجرد شخص واحد وليس الكل، مجرد واحد من بضع ملايين إنسان؛ ولكن يبدو أن قناعتي وإيماني كان تفاؤلاً مبالغاً فيه؛ بمعنى أنه كان خداعاً للنفس، وحتى الآن خُدعت أربع مرات.

"فقط أربع مرات؟ ليس كثيراً إذا قضيت ستة وثلاثين عاماً تعيشين بين بضعة ملايين شخص"

❖

تعرفين يا نارين، في مدينة مثل "دهوك"، تُخدع الواحدة منا بكل سهولة دون إرادتها، وتغترب دون إرادتها، وبخاصة عن الطبيعة، والحياة، وعن ذاتها. وإذا كان بالإمكان أن تعودي لشيء اغتربتِ عنه، فماذا ستفعلين إذا اغتربت عن نفسك؟

صحيح أن هناك جبالاً تسوِّرمدينة "دهوك"؛ ولكن ليست هناك أشياء كثيرة أخرى.

"مثل ماذا ؟"

مثل: الكذب، الموقف والمبادرة.

"الموقف والمبادرة عرفتهما، ولكن الكذب.. كيف؟"

ليس هناك كذب، لأن أي شيء يحدث هو حقيقة، ويجب علينا ألا نخجل منها!

❖

نحن نغترب دون أن نشعر بأنفسنا.

"كيف لا نغترب ونحن محرومون من الكثير من الأشياء"

نعم. مثل فانتازيا الطفولة، أحلام المراهقة، وأحاديث زملاء الدراسة حول الريف والطبيعة. كنت أتمنى من كل قلبي أن أعيش في إحدى قرى مناطق السهول، وخاصة بعد أن رأيت ذلك الحلم الرائع الزاهي بألوان قوس قزح والطبيعة. ولكن حتى هذه الأمنية لم يعد لها مكان في نفسي، لأن المجتمع، وخاصةً جنس الذكور فيه يتعاملون معي، حيثما كان، ككائن أنثوي، ضعيف وغريب.

نحن ليس لدينا أقارب في القرى، وهم مجرد بضع عائلات مستقرون في المدن. أحيانًا ما أرى ذلك سبباً في وهن العلاقة بينهم وبين الطبيعة. والأشخاص الذين تضعف علاقتهم بالطبيعة يغدون ضعفاء أيضاً. وقد توصلت إلى قناعة أن الضعف جسرٌ نحو العدم، والعدم يعني النهاية.

نارِين، لا داعِ لأن أتظاهر بالقوة أمامك، لأنه مرت عليَّ أوقاتٌ كثيرة رأيت فيها نفسي ضعيفة. وعندما أرى نفسي كذلك، أفكر في إنهاء حياتي. ولأن مشاعري حقيقية وقلبي كبير، فقد كنت أصبر وأقول لنفسي: حتماً سيظهر شخصٌ ما ويحبني لذاتي. فقط من أجل ذلك

الشخص، وذلك الحب ما أزال حية ولم أنتحر. كنت واثقة أن ذلك الشخص، عاجلاً أم آجلاً، قريباً أو بعيداً، سيأخذ مكان سلواي "سَميان"، ولكن في قلبي هذه المرة.

❖

من عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثمانين وحتى العام ألف وتسعمائة وواحد وتسعين من القرن العشرين، كنتُ ضميراً للشخص الثالث. ولكن بعد ذلك، أخذت أنا نفسي مكان الشخص الثالث. ومن عام ثلاثة وثمانين وحتى الآن، تغير الكثير من الأشياء والأماكن، وتغيرتُ أنا أيضاً. فقط، رجال هذه المدينة بقوا كما هم، ما زالوا يعيشون من أجل بطونهم وأسفل بطونهم. وللأسف فهم لا يتركون فرقاً كبيراً بينهم وبين البهائم.

"الإنسان هو الذي يضع الآليات الخاصة به ليتحكم ويؤثر في الطبيعة وما حوله من بيئة، ولكن الحيوانات تسعى دائماً لتتأقلم وتنسجم، لأنها تفتقد تلك الآليات. عزيزتي مريم، إنهم لا يستحقون أن نُلوِّث وقتنا ومكاننا بالحديث عنهم. صدقيني، فهم لا يستطيعون أن يجعلوا أحداً يخاف منهم، لأنهم خائفون أصلاً. وهم محقون في ذلك الخوف، لأنهم يوماً بعد يوم يصبحون أكثر عُرياً وخواءً. يجعلون تاريخاً حياً وجريحاً، كُتب بالدم، قرباناً لأفعالهم وتصرفاتهم الصبيانية. لا يجاريهم أحد في النفاق والفساد، مباراة في إثبات من سينافق أكثر، أو من سيظل بلا موقف. ليس معقولاً أن يكون هذا نتاج ثورة وانتفاضة، ليس معقولاً أبداً"

لقد تحرر هذا الجزء من الأرض، لكن هذا الجزء من الإنسان ما يزال محتلاً.

"لماذا؟"

هناك أسباب كثيرة. ولعل أصل الأسباب أن الجوهر قذر. جوهر الإنسان ليس عضواً من جسمه، الجوهر له ارتباطٌ بالعلاقات الاجتماعية والخارجية للإنسان. أنا لا أتحسر على الماضي، لأننا لم نكن حينها موجودين، ولكنني أحياناً كثيرة أيضاً لا أُمنِّي النفس في حاضرنا. صحيحٌ أننا موجودون، ولكن ماذا أصبحنا؟ الماضي كان مختلفاً، كان إنساننا يُضطهد لأنه كان لديه عارٌ وغيرة وأحلام، كان سامياً في تكوين نفسه. كان في الماضي أعلى من بناية "مديرية الزراعة" ومبنى "مستشفى آزادي" وشقق "كري باصي"، أعلى من فنادق وموتيلات يومنا هذا، التي لا يتجاوز عدد نجوم واجهاتها ما تحمله كتفا ضابط أُميّ من ضباطنا. ولكن إنساننا اليوم غدا واطئاً، واطئاً مثل أولئك البشر الصغار في قصة "حلم في وطن البشر الصغار" للقاص الياباني "سانيتزو".

والآن أيضاً.. في كل قرية وقضاء ومدينة، يكاد "حي الملايين"[5] يغدو رمزًا لمدنيّتنا، ولكن محلة بروشكي[6] ما تزال رمزاً لحلمنا الأخير، حلم الخلود.

---

[5] حي الملايين: أنظر الهامش رقم (1).

[6] حي بروشكي: كان- ولا يزال- من أكثر أحياء دهوك فقراً واكتظاظاً بالسكان.

يا حسرةً على ما مضى! في الماضي كان محمد مَيْريَ مجرد بقال، لكنه الآن مقاول أو مسؤول. كان في الماضي يحلق شعره بالموسى، ولكنه الآن يصبغه.

الثَّـــوري

قبل أن أحدثك عن كرمانج، أود أن تتعرفي على ثلاثة أشخاص آخرين أيضاً، هَزار البيشمركة، وإسلام الشيوعي وهاوار الإسلامي. وكما ترين، فإن لكل واحد منهم كنية خاصة به. كانوا ثلاثة تكوينات، ثلاثة تجارب وثلاثة أسماء مختلفة، لكنهم كانوا، إلى حدٍ ما، متشابهين في تركيبتهم، وفي التعبير عن أنفسهم. تصورتُ أن كل واحد منهم شيءٌ خاص، أي أنهم لا يشبهون الآخرين؛ ولكن- يوماً بعد آخر- كان هذا التصور يتعفن في رأسي. في ظلمات السنين، كانوا يريدون أن يجعلوا من أنفسهم شموعاً لي؛ ولكنهم- في النهاية- قتلوا الحقيقة في دواخلهم ودواخلي.

في البداية، تعرفت على هَزار. كنت أراه شاباً محترماً. لديه، إلى حدٍّ ما، كاريزما قوية، وتتوفر فيه بعض خصائص الشخصية النموذجية. ولكن تبين لي- فيما بعد- أنه مجرد لوحة من هذه اللوحات التي لا تحمل

عناوين، والتي أرسمها لنفسي فقط. كان يبحث عن المُلك والأملاك، فيما هو ليس ملك نفسه.

❖

في صيف عام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين، كان هناك احتفال- أعتقد في شهر تموز- بمناسبة تأسيس برلمان كردستان. تلقيت- قبل ذلك بفترة وجيزة- دعوة للمشاركة في معرض تشكيلي مشترك، ضمن فقرات الاحتفال بتلك المناسبة. وشاركت في المعرض بلوحتي "أطلال"، ونلت عليها الجائزة الأولى. أحياناً ما أقول ليتني لم أحصل عليها.

"لماذا عزيزتي مريم؟"

لا أعرف يا نارِين، لكن الذي أعرفه أن تلك اللوحة قد هدَّمت، وبتهذيب، الأسوارالعالية والمنيعة لوطني أنا، أمام حوافر احتلال الجنس الآخر. في تلك اللوحة، كان كل شيء قد مضى، فقط طفل يمتطي كتفي أخيه أو ربما والده، وهو يلتفت إلى الوراء واجماً دون أن يبكي. في لوحة "أطلال"، أردت أن أقول إن الألم قد تجاوز البكاء. زين الكثيرون من زائري المعرض سجل الزيارات بإمضاءاتهم. هَزار أيضًا كان واحداً منهم، ولكن ليس فقط بإمضائه الذي كان يشبه خنجراً مسلولاً، وإنما دوَّنَ رسالة ملؤها حياة ومحبة وشوق، وختمها بكلمة "المخلص" مع رقم هاتف أيضاً. كانت رسالته عاطفية، ولكن كلمة "المخلص" كانت أجمل ما فيها، لأنني لم أسمعها من رجلٍ قبل ذلك.

ذهبت أيام خاوية وجاءت أخرى غير خاوية، وجلبت معها هَزار[7] مرةً أخرى، ولكن هذه المرة كان فقط اسمه الذي يدل على الفقر. كان قد انتقم من الكثير من الأشياء، وأولها الفقر. كان يبحث عني، وكما قال لي، إن حركتي قد انقطعت. وبعد أن عرف مكاني، بعث لي برسالة مع صبي، تحدث فيها عن الشوق والغربة والأطلال: الأطلال القديمة والأطلال الجديدة.

والحقيقة أن هَزاراً عندما التحق بالجبل، أصبحت "دهوك"ـ بالنسبة لهـ أطلالاً وذكرى. وبعد أن نزل من الجبل، أضحت الجبال هذه المرةـ بالنسبة لهـ أطلالاً وذكرى. وكان عندما غادر "دهوك" قد بلغ الحادية والعشرين، أمَّا أنا فكنت حينها في الثالثة عشرة. هل تفهمين ما أقصد؟

كان هَزارـ مثل الكثيرين من متحمسي الكوردايَتي[8] قد رأى الكثير بأمِّ عينيه. كهيئة وملامح، يخاله المرء شيخاً هرماً لا ينقصه سوى عكاز ومسبحة؛ ولكن كروح، كانت عيناه تطفحان عشقاً وبريقاً. وكنا نشترك في العديد من الخصال، وأذكر منها: الهدوء، الحماس، الصمت و....!

"والخوف؟"

نعم الخوف من الماضي.

❖

---

[7] هَزار: بمعنى الفقير. في الأصل هناك ثلاث نقاط على حرف الزاي، ويُلفظ الحرف كما ينطق أهل الشام حرف الجيم.

[8] الكوردايَتي: الهوية الكردية، ويقابلها في العربية "العروبة".

الخشية من الماضي يا عزيزتي، نارين. سؤال: ترى هل حدث وأن خفتِ ذات مرة من ماضيك؟

"نعم، قبل أن أهاجر إلى أوروبا"

أحياناً، لا يدعنا ذلك الخوف نمضي يومنا كما يجب، أو أن نرى مستقبلنا يدعو للتفاؤل. طبعاً ليس شرطاً أن هناك محمد مَيْريَ في ماضي أو مستقبل أية فتاة في هذا البلد، كي تخاف أو لا تخاف، وليس شرطاً أيضاً أن يكون لقب كل محمد هو مَيْريَ أو المهدي.

كان هَزار كما وصفته لك. ولكن بعد علاقتي وتجربتي معه، أخذت أترحم على أيام محمد مَيْريَ، لأن هذا الأخير لم يكن لديه شيءٌ أفضل ليمنحه لي؛ أما هَزار، فكان لديه ولكنه لم يعط.

وتمضي الأيام...

وهَزار الذي كان- في معظم الأوقات- ذا شخصية نرجسية، يصبح غنياً في كل شيء إلاّ في عاطفته وإخلاصه؛ فقد غدا أكثر جدباً. في الأيام الأولى لنشوء علاقتنا، عندما كان يتحدث أحياناً عن اللوحات والألوان، كنت تظنين أنه فنان ودرس الفن. كان يتحدث عن بعض الأساليب والمدارس الفنية، كما كان يتحدث عن أعمال "بيكاسو" و"سلفادور دالي" و"فان جوخ" الفنية. في مدينة "دهوك" هذه كان هناك، يومها، قلة ممن يعرفون هذه الأشياء عن الفن والفنانين مثله. كنت أشعر بالضجر لأنه كان- أثناء حواراتنا أحياناً- يوجه لي أسئلة مطلقة، وكنت لا أمتلك أجوبة عليها، مثلا: الفرق بين الفن الرمزي والكلاسيكي

والرومانتيكي. وكنت، قبل أن أقرأ بعض الكتب الفلسفية، ليس فقط لا أعرف الجواب، بل ولا أعرف حتى إلى أية مدرسة ينتمي فني.

وبفضل تجاربي مع السنين والجنس الآخر، فقد توصلت إلى قناعة بأن الحب لا يحتاج إلى أسباب، ولكن- في غالب الأحيان- إلى الأرضية والفرص المناسبة. ليس بسبب الفن وحده، إنما أجزم أن عدم وجود المرأة بين صفوف المقاتلين البيشمركة هو الذي دفع هَزار إلى أن يصادقني بسرعة، ثم ليُعجب بي بعد ذلك. دامت علاقتنا لمدة عامين متواصلين، كصديقين في البداية، ثم كحبيبين فيما بعد. كنا نلتقي بين الفينة والأخرى، وكنا نزيِّن لحظات وأماكن مواعيدنا الحميمية بالعاطفة والرومانسية. وكان إذا عزَّت فرصة اللقاء بيننا يبعث الرسائل، ورسائله ما تزال موجودة للآن. وللتاريخ، تاريخي أنا وليس أحد غيري، ما أزال أحتفظ بتلك الرسائل. وفي الحقيقة، فقد قضينا معًا أياماً ممتعة: مرةً كنا نستحيل سمكتين في نهر دجلة، أو حمامتين بيضاوين في سماء منطقة "حظر الطيران" تارةً أخرى...

"والمرات الأخرى...؟"

نستحيل سؤالين!

❖

ثم سأكتشف- فيما بعد- أن تجربة هَزار في الجبال قد أثقلت كاهله بعض الشيء. كانت قد أثَّرت سلباً على تصرفاته وطباعه، فأصبحت سايكولوجيته تشبه الإنسان الثوري، بمعنى: أنه كان يضحي بكل شيء

من أجل الغاية. في السنة الثانية من عمر علاقتنا، كنت أتمنى أن يعاملني- ولو مرةً واحدة- كأنثى، وليس كمغارة أو خصم. نعم، كان يبحث في أعماقي عن كهوف وخصوم، ولا أعلم كيف عثر عليها. كان، إلى حدٍّ ما، خبيراً في مسائل الجغرافيا والظواهر الطبيعية. وكان يعرف الكثير من أسماء الطرق والمناطق، الأعشاب والزهور، والحيوانات والأمراض.

كنت أسأله- بين الفينة والأخرى- عن أيامه الخوالي، عندما كان مقاتلاً في صفوف البيشمركة، من قبيل: ماذا كنت تأكل وتشرب؟ أين كنت تنام؟ كيف كنت تتصرف عندما كان الشوق يستبد بك؟

كان ممكناً أن يصبح كل جواب منه لوحة، لكنه- بدلاً من أن يجيب- كان يغضب مني. لم يكن يريدني أن أذكّره بتلك الأيام، ويلمح لي أنه يود نسيان تلك المرحلة، رغم أن تلك الأيام العصيبة فقط، في تاريخه وتاريخ الكثيرين غيره، يمكن أن تكون مبعثاً للفخر.

"كيف انتهت علاقتكما؟"

بمأساة- كوميدية أخرى: وذلك بعد أن تكشفتْ لي شخصيته شيئاً فشيئاً. أتذكر جيداً، كان ذلك بمناسبة عيد "نوروز" في عام ألف وتسعمائة وأربعة وتسعين ، يوم الأحد، أرسلت له بطاقة دعوة لحضور معرض فني مشترك في اليوم التالي. وكنت قد أبلغت بقية زملائي الفنانين أن هزار أيضاً سوف يحضر المعرض. كانوا متلهفين لرؤيته والتعرف إليه، ولكنه- بحجة زحمة العمل وضيق الوقت- لم يحضر للأسف، ولم يقدم اعتذاراً حتى. وبعد ذلك بأسبوع، وصادف يوم أحد أيضاً، اتصلتُ به

هاتفياً هذه المرة؛ لكنه حادثني بأسلوب جاف حاول من خلاله أيضاً أن يقلل من القيمة الفنية لأعمالي. وفي النهاية، قال لي متهكماً: مريم، ابحثي لك عن عمل آخر، الفن لن يقدم لك خبزاً.

وساورني الشك في الموضوع، ترى هل هو سلطان الجن نفسه يخفي وجهه بقناع البيشمركة القديم، أم أنه والدي ديوالي يحاول- من قلة حيلته- أن يسدي لي هذه النصيحة المتأخرة لأنه يخاف علي، أم أنه حقاً عاشق كان قد قرر- ذات يوم- أن يضحي بمصالحه في سبيل الحب والمبادئ؟

❖

بعد تلك المكالمة الهاتفية بعدة أشهر، ولما أدرك أنه كان قاسياً معي، ومن أجل أن يصالحني ويكفر عما بدر منه، دعاني لقضاء سهرة خاصة في قصره الواقع في حي "شاخكي". كان ذلك في يوم الجمعة، يوم فعل الخير، كما يقول الأخوة المسلمون. أتذكر أن ذلك اليوم صادف الأول من تموز أيضاً. كان الوقت ظهراً، استفقت من النوم، وكان هو لا يزال في عمله- لم أكن أعلم حينها ماذا يعمل بالضبط- ذهبت إلى السوق، واشتريت بعض أوراق العنب لأنني أعرف أنه يحب أكلة ملفوف ورق العنب بلا حدود، إضافة إلى بعض اللوبيا الخضراء لأسلقها وأقدمها كمزّة مع الشراب. كنت أعمل جاهدةً لتكون سهرتنا شاملة: دولمة، نارجيلة، مشروب، مزة، لوحات، موسيقى، بخور وأشياء أنثوية أخرى.

كنت أحتفظ بنسخة من طاقم مفاتيح القصر. دخلت، ومثل الكثير من المرات، جعلتُ غرف وممرات القصر تلمع كالمرآة. كان الجيران يعتقدون أنني ربة المنزل. فعلاً، فأنا كنت أعمل بشغفِ ربةِ منزل؛ نفضت مفروشات الحرير والسجاجيد العجمية المعلقة في الجدران المطلية بالكلس. وبعد عشاء خفيف، قمت بتحضير نارجيلته، وزينت الطاولة المصنوعة من الخشب الطبيعي ببعض المشروبات والمزَّات. كان صوت الموسيقى الممتزج بروائح البخور ينسرب مع نسمات المساء المنداحة من خلف الستائر الزهرية. أما أنا، وبفضل الستائر المعتمة، فقد كنت أتنقل بين غرف القصر بقميص النوم. في الليلة التي سبقت السهرة، فكرتُ في نفسي وقلت إنه ليس من اللائق أن أذهب بيدين خاليتين. لذلك فقد اخترت لوحة من لوحاتي "تفاحة حمراء في شجرة عارية"، وجلبتها معي هديةً لغرفة نومه، وتركتها لآخر الليل، بعد أن غلفتها بصفحات جريدة قديمة، كي لا ينتبه إليها. ووضعتها عند أرجل السرير. في تلك الليلة، بقيت جالسة متعبة تحت خيمة الانتظار حتى الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل. وكان رأسي ينحني على عنقي كشتلة ريحان ذابلة قُطع عنها الماء. لأكثر من مرة، داهم النعاس عيني، ولكني كنت أجفل في كل مرة، فأسارع إلى رش بعض الماء البارد على وجهي. لم أكن أريد أن يراني نائمة عندما يعود، كنت أود أن أحتضنه بلهفة عائد من السفر ولا أتركه؛ فقد مضت أيام لم أره فيها. وفهمت، كما قال هو فيما بعد، أنه قد تأخر مع بعض مساعديه لإنجاز أمور حسابية. بعد نصف ساعة، جاء يتقدمه صوت صفيره مغيراً أجواء القصر بالكامل. حيّاني بكبرياء الأغا حين يثني على عمل أدَّاه رجاله؛ فقد أخذني بإحدى ذراعيه في حضنه

البارد، ولامس خده خدي. كنت أرغب من كل قلبي أن يقبلني في جبيني، أو أن يلتقط شفتيّ بشفتيه، لأنها كانت البداية، وكنت في حاجة إلى العنفوان والحماس.

تصرفه البارد ذلك أصاب ركبتيَّ بالارتخاء، وأحسست نفسي كهيكل فزاعة يهتز أمام رياح بيادر الشكوك والأسئلة، وهي تتقاذف أطرافي يمنةً ويسرةً؛ ولكني كنت أشعر أن قدميَّ مغروزتان في الأرض.

تمدد على الأريكة الحمراء وسط الصالة، كسلطان صاحب إرث تاريخي يتربع على عرشه. كان يدخن النارجيلة، وأنا جالسة كجارية مملوكة في انتظار أن يأمرني بإشارة من عينيه أو يديه لأنفذ الأمر دون تردد. كنت أجلس إلى جانبه، وأنفض جمرات النارجيلة من الرماد بين الحين والآخر، لتتوهج نارها ويسري الدخان صافياً. وكان هو، بين لحظة وأخرى يقيس، بنظراته أحياناً وبأطراف أصابع يده أحياناً أخرى، أجزاء جسدي. وكان- حتى تلك اللحظة- فاتر الهمة؛ ولكن عندما أوصلت أنا أيضاً أطراف أصابعي إليه، شعرت أنه بدأ يسخن، لأنه نحّى النارجيلة جانباً، وقال: الليلة، أنت عروس وأنا العريس...

لا أعرف لماذا كان لجملته وقعٌ لذيذ في أذني. ولكن للأسف، سأعرف فيما بعد أن قصده كان مؤقتاً.

مسد على رأسي وكأنه يرأف لحالي. في تلك اللحظة، رأيت والدي ديوالي، واغرورقت عيناي بالدموع، لكنهما لم تفيضا. تمنيتُ أن تمتد تلك اللحظات المعبرة. ولكن فجأةً استحالت هيئة هزار ذئباً، وهجم

نحـوي بعـد أن رأى صـورةً علـى الطاولـة تمثـل بعـض فتيـات حـرب العصابات، وهـن مسلحات، يقفـن وسط الثلـوج أمام أحـد الكهـوف. كـان ينظـر إلى الـصورة بعـين الغـضب وبأسـلوب عنيف. وبكـلام غريـب خرَّب ليلتنا الـتي كـان مـن المفترض أن تكـون خاصـة، حـين قـال: "يقـول كمـال أتـاتورك: الأمـوال وجـدت لكـي تُـصرف، والعـدو لكـي يُقتَـل، والمرأة أيضاً للمضاجعة فقط".

كانـت المـرة الأولى الـتي أشـعر فيهـا أنـني لـست في حاجـة الى أذنيّ. وبصورة عفوية، بكيت من أجل هزار الثوري. وبصورة عفوية أيضاً، ضحكت من هزار العاشق. مع صوت أذان الفجر، خرجت من القصر وتركتـه وحيـداً. خـرج ورائـي يتبعني حـتى منعطـف الـشارع، ولكـني لم ألتفت خلفي؛ فقد كان هناك آخرون أيضاً يهربون أمامي: مريم اليتيمة، الفتاة الفنانة، العاشقة مكلومة القلب، والكردية الأسيرة.

والآن، صـاحب تلـك الكلمـات أصـبح تـاجر سـلاح علـى حـدود الموت.

الكافِـــر

حتى تموز من عام ألف وتسعمائة وستة وتسعين، بقيت وحيدةً في خلوة خيالية وهادئة. لا أخفي عليك، لقد كانت أياماً في غاية الصعوبة؛ ولكني بالمقابل لم أتلق إهانة من أحد، ولم يجرح أحد مشاعري.

"في هذه المدينة التي فطمت على الخوف، فإن إهانة الناس وجرح مشاعرهم أمر كفروض الصلاة"

نعم! ولكن أحداً لا يقف عند تلك الحدود. كانت فترة ملأى بالخوف، ولكنها كانت حرة ومنفتحة أيضاً. كان يسيراً عليَّ أن أقول "نعم" أو "كلا".

عزيزتي نارِين، بالإضافة إلى التجربة والحرية، أعتقد أن أفضل فرصة ليختبر الإنسان قدراته هي أن يختلي بنفسه. لم يكن قد بقي لي شيء خاص لأخشى منه. خلال السنتين اللتين قضيتهما في الوحدة، حاولت أن أفهم نفسي أكثر، وذلك عن طريق المطالعة والتمرين، لأني أعتقد أن

الإبداع، إلى حدٍّ ما، أمرٌ مرتبط بالتمرين. خلال تلك السنتين، تمكنت من إنجاز أربع وعشرين لوحة، كانت تكفي لإقامة معرض تشكيلي شخصي، رغم أن فكرة إقامة المعرض لم تكن في ذهني، لأن أوضاعي- وخاصة من الناحية النفسية- لم تكن مؤاتية.

"الأول من تموز، الشروخ، الستائر المزقة، الثعابين العمياء، وأدخنة القاطرات": كانت كلها قد تحولت إلى رموز رئيسية في لوحاتي. وفي بعض اللوحات، كانت كل هذه الرموز تلتقي مع بعضها بعيداً عني.

وربما لأنني أنثى، فإن معظم زوار المعرض كانوا يتوقعون أن تكون لوحاتي أيضاً أنثوية. كانوا يتصورون أن هناك فقط طحلبيات تنمو على شواطئي، فقط التفاح يتدلى من أغصاني، فقط الزنابق تزهر في مياهي. من ذلك الحشد كله، كان هناك فقط شخصان يفهمان لوحاتي: كوفان وكازين؛ لكنهما لا يستطيعان التحدث في ذلك للآخرين، لأن تلك الرموز كانت متعلقة بجراحي أنا، وهما لا يودان أن يضع غريب يده على جرحي. كانا صامتين. ورغم أني لم أكن أعرف بالضبط سرَّ صمتهما، ولكني متأكدة أنهما كانا يقولان بفخر "هذه شقيقتنا الكبرى".

❖

قبل أن تنتهي أيام المعرض، وبالضبط في اليوم الثالث، جذب انتباهي شاب وسيم في صالة المعرض. كانت ملامحه تبدو غريبة بعض الشيء، وهو يتأبط جريدة مطوية.

ذاكرتي قوية، أقصد أنني لو كنت رأيت الشاب قبل ذلك لعرفته. كان يمعن في النظر إلى اللوحات، يخال للناظر إليه أنه يبحث عن لوحة مفقودة، أو أنه تاجر لوحات يعاينها قبل أن يشتريها. ولو كان لدينا نقاد لربما اعتقدته واحداً منهم. كان يقف أمام كل لوحة، ينزل نظارتيه على طرف أنفه المستقيم ليرى التفاصيل الفنية الدقيقة فيها. كانت عيناه الزرقاوان جميلتين جداً، ولكن كان يبدو أن بهما قصر نظر، للأسف. وكان بعد أن يتطلع في كل لوحة، يلتفت على كتفه؛ ومن خلال ذلك الحشد كان، كسياسي أثناء المفاوضات، يبعث نظراته نحوي. تريدين الحقيقة، ليس فقط حرصه ومتابعته واهتمامه باللوحات هو الذي جذب انتباهي، وإنما هندامه أيضاً، وبخاصة ملابسه السوداء، السوداء بالكامل. كان يلف قامته المديدة بمعطف بلون ليالي هذه المدينة، ويلف حول عنقه لفاعاً من نفس اللون. كنت تظنينه أحد أبناء الاسكيمو، وقد ضل سبيله إلى هنا.

ومثل الكثيرين، وضع هو الآخر إمضاءه في سجل زيارات المعرض، وتمتم مهنئاً، وأثنى على عملي. رائحة عطره الزكية جذبت أنفاسي نحوه، على العكس من روائح آباط البعض الآخر التي تزكم الأنوف. الشعرات البيض المتفرقة في صدغيه أعادت إلى ذاكرتي كل مواسم السنة، وبالأخص فصل الشتاء. أحسست أنه يرغب في الحديث معي، لكن لم يكن في مقدوره لأنّ وقت زيارة المعرض كان قد شارف على النهاية، وكان البعض من البقية الباقية من زوار المعرض يودون إلقاء التحية والتعرف عليَّ أكثر. كان ينظر بين الفينة والأخرى إلى ساعته الذهبية

اللـون الـتي تـزين معـصمه بـسوار أسـود. فهمـت علـى الفـور، وطبقـا للإتيكيت المطلـوب مـن فنانـة صـاحبة معـرض بـادرت إلى القـول: عفـواً أستاذ، أرجو أن يتسع وقتك للانتظار، فأنا لي حديث معك.

فهـم هـو الآخـر أيـضاً، وابتـسمت عينـاه الزرقـاوان، ثـم قـال: شـكراً سيدتي.

❖

(مـريم خـان، شـكراً لهـذه الفرصـة والمبـادرة. أُحـب زيـارة المعـارض الفنية كثيراً، ولا يهـم من يكـون الفنـان. لم أكـن أعرف اسمكِ في السابق، ولكني قرأته فيما بعد على اللوحات. في الحقيقة، لا أدري من أين أبدأ ، فجميع لوحاتك رائعة.. فنك جميل بلا حدود، ولكني أحببت أن أقول شيئاً، ولا أعرف إن كان سيُحسب سؤالاً أو نقداً أو شيئاً آخر...)

كنـت أتطلـع في عينيـه، وكـان ينظـر إلى ملامحي وألـوان ملابـسي؛ ثـم منح نفسه الحق ليقول "أنتِ أيضاً لوحة بحد ذاتك، ولكن أجمل بكثير من بقية اللوحات كلها".

قالها بارتباك وهو يعدل وضع نظارتيه بأطراف أصابع يده. لم أنزعج من كلماته لأنني رأيت إنسانيةً طاغية، سائدة على جنسه. كانت هناك نسمات تتحرك بيني وبينه، وكنت أشعر بنفسي وكأني فتاة مراهقة واقفة تتلقى كلمات غزل من شاب في عمرها. لا أعرف لماذا، ولكن في تلك اللحظـات طـارت مـن ذهـني كـل الـذكريات المؤلمـة، وطغـت مـشاعري لتعرّف على نفسي كأنثى وليس كفنانة. غدوت وكأنني لست في صالة

المعرض، وإنما مرة أخرى في الزمن الآخر، وسط حقول القطن الأبيض، بعد أن حملني قوس قزح، كما تحدثت عنه في البداية.

"تفضل أستاذ، قل ما لديك"، هكذا قلت له، ثم وقفت كتلميذة مسكينة في المرحلة الابتدائية، مكتّفة الذراعين، لأستمع إلى ما سيقوله، هو الذي لم يكن يود التصرف كأستاذ: "في الحقيقة إن ألوان لوحاتك جميلة جداً، ولكن، وأرجو ألا تستائي مني، فإن معظمها يغلب عليها طابع البرود. ترى لماذا لم تستخدمي اللون الاحمر؟!"

ظننت أنه انتهى من حديثه. ولكن قبل أن أرد على ملاحظته، استأنف حديثه مرة أخرى، وكشف لي- بكل بساطة- عن إحدى طبائعه؛ قال: "في الحقيقة، لقد سررت جداً باللوحات، بل تأثرت بها إلى حدٍّ بعيد. ولكني أعود فأقول، إنك لم تستخدمي اللون الأحمر".

عفواً يا سيد، ولكني لم أعرف اسمك لحد الآن؛ هل من الممكن أن نتعرف عليك؟

وبأسلوب ينم عن الثقة بالنفس، أجاب: إسلام.. إسمي إسلام.

بابتسامة باهتة وبضع كلمات مداهنة، أفصحت عن سروري. ولكي لا يغدو هو الآخر لغزاً مثل هَزار البيشمركة، فقد درتُ حوله، هذه المرة مثل أستاذة، ثم سألته: أخ إسلام، هل يمكنني أن أعرف ماذا تشتغل؟

"قبل الآن، كنت أمارس عمل التنظيم الحزبي، كنت أحد كوادر الحزب الشيوعي، ولكني الآن عاطل عن العمل".

عزيزتي نارِين، أنا أعرف ما هو معنى البطالة، ولكني لا أعرف كيف يتدبر العاطل أموره؟ كان ينتظرني في شوق كي أجيب عن سؤاله... لماذا لا أستخدم اللون الأحمر؟ فقلت عن قصد ومكيدة: لأنني لم أعد أؤمن بالعشق والثورة.

مع جوابي البسيط هذا، التفت هو إلى جانبيه كأنه إمام في المسجد يستعد لإقامة الصلاة. سحب الجريدة التي كانت تحت إبطه، ثم وضعها تحت إبطه الآخر. ومرةً أخرى، عدل من وضع نظارتيه بأطراف أصابعه، ثم لاذ بملاحظة أخرى: "في الحقيقة، أنتِ لست فنانة فقط، ولكن الظاهر أنك مثقفة أيضاً".

بملامح وجهي وكلمة "عذراً!"، أعربت له، بلا تكلف، عن دهشتي. لأنه ليس من المعقول ألا يكون الشخص الفنان، إلى حدٍّ ما، مثقفاً. ويبدو أن تلك الملاحظة قد أفلتت من لسانه، لذلك بادر فوراً إلى طلب المعذرة، وتدارك الموقف بالقول: "اعذريني سيدتي، كنت أود أن أقول إنك لست بارعة في استخدام الألوان فحسب، بل وتجيدين التعامل بالكلمات والأفكار أيضاً..."

كان يبدو أنه يحاول، بطريقة أو بأخرى، إفهامي أنه هو الآخر فنان، ولكن في فن الكلمة واللغة. حاولت أن أحدثه عن الحقيقة واللاحقيقة، لأنني لاحظت أنه يكثر من استخدام تعبير "في الحقيقة"، عندما كان يتحدث معي. ولذلك، وددت أن أوضح له أنه ينبغي أن تكون كل أشكال النضال حقيقية؛ لكني آثرت الصمت لأنه أحد كوادر الحزب الشيوعي، وليس من المعقول أنه لم يفهم أنّ على الشخص الفنان أو

الكادر أن يكون صادقاً مع نفسه ومع الاخرين أيضاً، والأمر لا يستدعي أن يُقسم أو أن يطلب من الاخرين كي يصدقوه، لأن الثقة كالزكاة، يجب عليك أن تعطيها لا أن تطلبها.

ودون أن أسأل، استغل هو الفرصة وراح يتحدث عن نفسه. قال إنه يمارس أحياناً كتابة النثر والنصوص الأدبية، وإذا لم يكن ثمة مانع لديَّ فإنه يود الكتابة عن بعض اللوحات. وافقته على الفكرة شاكرة، وسمحت له بذلك. ولكني رجوته، من باب الدعابة، أن يهتم برموزي.

وضع يده على صدره، وقال: "ذلك وعد. في الحقيقة أنا متلهف لأكتشف تأثير وفعالية هذه الرموز في لوحاتك... أتمنى من كل قلبي أن نلتقي مرةً أخرى، ماذا تقولين؟".

وقلت له من باب المزاح: "كما يقول الأخوة المسلمون: الله كريم".

أعطاني بطاقة عليها اسمه ورقم هاتفه، ثم قال قبل أن يغادر: "أنا في انتظارك، إذا أردتِ الاتصال بي، أرجو ألا ترددي".

❖

أنزلت بطاقته كتعويذة في حمالة صدري. لا أدري لماذا داهمتني فجأة ذكرى سلطان الجن ومحمد مَيْريَ. ومرت أيام دون أتصل به، لأني كنت قد أضعت بطاقة الهاتف، أو ربما وضعتها في مكان عصيٍّ ولم أعد أتذكره، لا أعرف بالضبط. ثم انشغلت بالرسم وأداء الأعمال اليومية. كنت قد نسيته، ولكني كنت كلما شاهدت رجلاً يرتدي ملابس سوداء

أتذكره على الفور، بحركاته وكلماته، وخصوصاً عندما قال: "أنتِ أيضاً لوحة بحد ذاتك، ولكن أجمل من بقية اللوحات كلها".

في أحد الايام اشتريت، كالعادة، مجموعة من الصحف والمجلات المحلية التي صدرت في ذلك الأسبوع قبل أن أعود الى البيت؛ كما اشتريت مجموعة كتب فنية، وكلها بأسعار رخيصة لأنها كانت قديمة؛ ويبدو ألا أحد يرغب فيها. في التاكسي، كنت أُلقي نظرة سريعة على مانشيتات وعناوين تلك الصحف والمجلات إلى أن أصل إلى البيت فأقرأها بدقة. فجأةً، جذب أحد العناوين انتباهي، كان مكتوباً في إحدى الصحف: "أنا لم أعد أؤمن بالعشق والثورة".

عرفت على الفور أنها مقولتي، وتذكرت متى وأين ولمن قلتها. وفي صفحة أخرى من نفس الجريدة، رأيت صورة لوحتي "دخان القاطرة" منشورةً مع قطعة نثرية باسم إسلام، كان قد كتبها بأسلوب فني؛ كانت قطعة نثرية جميلة، ولكن فقرة مميزة فيها أرَّخت لبداية قصتي معه. كان قد كتب "إذا كانت صاحبة هذه اللوحات السحرية لم تعد مؤمنة بالثورة والعشق، فالأولى ألا يقول أحد منا إنه ثوري وعاشق".

❖

غدا رأسي ينبوع شك، وتحركت مياهه.

كنت أود من كل قلبي أن أراه ثانيةً لأُقدم له شكري، ولكن الأيام كانت تجري وأُمنيتي تراوح في مكانها. لم يعد في مقدوري أن أقاوم صراع مشاعري المتناقضة، لذلك قررتُ في النهاية أن أتوجه إلى بناية تلك

الجريدة، وأسأل عن رقم هاتف إسلام أو عنوانه من إدراة الجريدة، أو حتى من رئيس التحرير نفسه. طبعاً، كانوا سيلبّون طلبي شاكرين، فقط لأنني أُنثى.

"ربما، وبعد؟"

ثم أسعفني حظي، فقبل أن تتحول تلك الخدمة إلى منَّة من الجريدة، أو تغدو موضوع حديث في يوم من الأيام، رأيت نفسي وجهاً لوجه مع إسلام في مدخل بناية الجريدة.

"أووه يا شقي، أبحث عنك في السماء، ثم أعثر عليك على الأرض!"؛ هكذا رحت أُحدث نفسي.

كان إسلام شخصاً محظوظاً، لأن أي شيء كان يود سماعه مني، كنت أقوله دون أن يطلب ذلك بنفسه.

ثم دعاني لتناول العشاء، عشاء فني كما وصفه هو. يومها، لم تكن هذه المطاعم الراقية موجودة؛ لذلك ذهبنا إلى مطعم منعزل في منطقة "زاويتة"، وكان مكاناً رائعاً. أشجار الصنوبر تشرف علينا وقاماتها تتمايل مع موجات نسيم المساء، وفي الأسفل كان عابرو السبيل يمرون وهم يفكرون بأصوات خفيضة. حتى في مكان منعزل كهذا لا يمكن للمرء أن يأخذ حريته، والأشخاص الذين كان يتصادف عبورهم أمامنا، كانوا لا يتحدثون لحظتها، ولكنهم، بنظراتهم، كانوا يقولون كل شيء. وليس للمرء أن يتزعج منهم، لأن الحياة نفسها ما تزال مجرد ظاهرة في هذه البلدان التي كان مناخها، فقط، جيداً لحد الآن، وهو

الآخر يسوء يوماً بعد آخر. ولكن، من يعرف، ربما كانت نظراتهم تشي بمعان جيدة وإيجابية؟ كأن يقولوا مثلاً: "هنيئاً لكم"، أو "يا لسعادتكم"، أو أي كلام آخر، بشرط أن يُعبِّر عن حسرتهم ولوعتهم.

أنا أعتقد أن الناس عندنا لا يستطيعون أن يُعبِّروا كما يجب عما يعتمل في نفوسهم. لذلك، فعلينا أن نخترق رؤوسهم إذا أردنا قراءة أفكارهم. أما إذا أردنا أن نكشف عن نياتهم، فعلينا حينها أن ندخل إلى قلوبهم.

عزيزتي نارِين، احتراماً للوقت ودعوة إسلام، كنت ذلك المساء معه بكل كياني وروحي. ولكن هزار البشمركة أيضاً كان حاضراً معي في كل لحظة. ورغم أنهما كانا شخصيتين مختلفتين، إذ كانا متشابهين فقط في جنسهما ونهايتهما معي، إلا أنني عندما كنت أنظر إلى إسلام كانت ملامح هزار تتراءى لي.

ثم طلبنا الطعام، أتذكر كما لو كان الآن، طلبت كباباً مشوياً، فيما طلب إسلام أكلة "قوزي" لنفسه. وفي انتظار أن تجهز طلباتنا، رحنا نشغل أنفسنا بتناول بعض السَلَطات والمشروبات. كان إسلام يريد أن ينقل أفكاره واعتقاداته إلى عقلي، ولكن بأسلوب مهذب. وأنا أيضاً كنت أريد جرّه إلى الحديث لأستطيع تقدير ومعرفة مستواه ووزنه عن كثب. وكان أفضل موضوع نفتتح به حديثنا هو لوحة "دخان القاطرة" وقطعته النثرية.

بعد أن نزع عنه معطفه ووضعه على حافة المنضدة، قال "منذ أيام، وأنا أفكر فيك. لقد شاهدت الكثير من المعارض، وتعرفت إلى العديد من الفنانين، لكنها أول مرة أُعجب فيها بمعرض، وأتعرف إلى فنان حقيقي. عزيزتي مريم ـ كان قبل ذلك يناديني مريم خانم- بين صفوف الشيوعيين يتعلم المرء الكثير من الأشياء والسلوكيات، عدا الكذب، فإنه لا يتعلمه، لذلك فإنني أقول لك الحقيقة...".

كنت كالضيف الغريب الذي يستمع إلى مضيفه صاحب البيت؛ أستمع إليه وأهز رأسي بين برهة وأخرى. كنت أود أن أسأله عن سر المعطف الأسود الذي لا يفارقه حتى في الصيف، ولكني تذكرت أنه عندما كان يتحدث ذات مرة عن اللوحات قال: "روحي باردة، لا أشعر بالدفء مطلقاً".

ولكنه عندما تطرق إلى الحديث عن الحقيقة، أوقفته بسؤال مختصر في منتصف الطريق: "حقيقة ماذا يا سيد؟".

"حقيقة مشاعري يا روحي- قبل هذا كانت "عزيزتي مريم" والآن أصبحت "يا روحي"- أرجو أن يأتي يوم تسنح فيه الفرصة لنتعرف على بعضنا أكثر. عندها ستكتشفين بنفسكِ حقيقة مشاعري، لأن كل كلماتي وكل ألوانكِ لن تتمكن من ترجمة تلك المشاعر".

فهمت مغزى كلامه، وأدركت ما يرمي من ورائه أيضاً. كانت عيناه لاتترجمان تلك المشاعر وحسب، بل واستطاعتا أن توصلها أيضاً. ولكني

كنت أدرك أن الوقت لم يحن بعد لصراع جديد، لأن جراحي القديمة لا تزال ساخنة.

"ربما كنت قد بالغت في مقالتي حول لوحاتك إلى الحد الذي كنت أتوجس فيه من التعرض للنقد، ولكن مشاعري كانت طاغية على أفكاري وتعابيري"، وقالها بخبث.

حاولت، عبثاً، أن أُغير مجرى الحديث؛ ولكن قوة دفق المشاعر والعاطفة الجياشة في أعماقه كانت تضغط وتدفعه لأن يبدأ من النهاية، فقال: "مريم، هل لي أن اسألك سؤالاً شخصياً؟".

ولكن متى كانت الخصوصيات مصانة عند الثرثارين والعاطلين عن العمل؟ وإن لم يكن بالعنف، فإنها- على أية حال- ستُنتهك باللين والتهذيب. لم يكن لديَّ أية فكرة عمَّا يود السؤال عنه، لكني أحببت أن أعرف؛ لذلك هززت رأسي وأومأت له موافقة.

قال بأسلوب يغلبه الاستحياء: "هل لديكِ صديق؟.."

وأجبت أنا أيضاً بنعومة: "كلا، ليس لديَّ صديق"

طبعاً فهمت معنى سؤاله. لكنه، للأسف، لم يفهم جوابي. كنت أعرف أنه يقصد "العشيق"، لكنه لم يدرك أنني إنما أقصد "الصديق". وكنت بالفعل بدون صديق، وحاجتي للأصدقاء كانت قائمة، ولكن في مجتمع إسلامي، شرقي ورجعي لا يزال يعيش طبقاً لقوانين الموتى، من تُراه يرضى أو يجرؤ على مصادقة فتاة هُتكت عذريتها؟

❖

سحبتُ سيجارة من علبة سجائره، وبادر هو إلى إشعالها بنفسه، قبل أن أبدأ بترتيب بعض الجمل لأكمل حديثنا، وأقتل بها الوقت، الذي يغدو أحياناً بلوى، هو الآخر...

قلت: "الماركسية في جوهرها تقوم على قاعدتين، الأولى: المادية الديالكتيكية، بمعنى: الرؤية الفلسفية والعلمية للوجود والكون. والقاعدة الثانية: المادية التاريخية: أي دراسة قوانين التطور وتقدم المجتمعات البشرية، وأساليب التكوين وتجسيد المجتمع في أشكال متنوعة..."

في لقاء واحد مع كائن أنثوي، تناسى إسلام الشيوعي كل شئ عن الماركسية. قطّب صفحة جبينه وعبس: "في الحقيقة، الوقت ليس مناسباً للحديث عن الماركسية. والأفضل، في مكان ووقت كهذا، أن نتحدث، أنا وأنت، عن نفسينا وحياتنا، وليس عن فلسفة بالية..."

استبدت بي النرفزة، وتشتت تفكيري. أطفأت السيجارة، واستدرت إلى حقيبتي لكي نتهيأ للعودة إلى "دهوك" الضيقة نهاراً والمعتمة ليلاً؛ لكنه بادر بسرعة إلى معالجة الموقف، فأسعفني وأسعف نفسه عندما قال: "عزيزتي مريم، التحقت بصفوف الحزب الشيوعي حين كنتُ في العشرين من عمري. قرأت كثيراً، أرسلني الحزب إلى الخارج في دورات للتوعية وبناء الشخصية ككادر حزبي، فسافرت إلى موسكو وبراغ والشام. وكما ترين، التهم البياض نصف شعر رأسي، وكل ذلك في هموم السياسة. أنا أيضاً مثل الغالبية أعرف الكثير من الناحية النظرية،

ولكن القليل فيما يخص الجانب العملي، القليل جداً، لأنني أحاول ـ منذ أكثر من ستة عشر عاماً ـ ولكن هيهات. كل الذين انتموا إلى الحزب استفادوا وانتفعوا، أما أنا فلم أتخل عما بدأت به، لأنني كنت أؤمن بالمبادئ. هل تعلمين ماذا فعلت بي تلك المبادئ؟ ستة عشر عاماً ليست قليلة لأن يؤدي المرء عملاً ما، ولكنها أيضاً طويلة جداً أن تتركه فقيراً معدماً. تم اعتقالي أكثر من مرة، قبل الانتفاضة وبعدها أيضاً، وتعرضت خلالها للتعذيب، ولكن أحداً لم يأت لنجدتي، ولا حتى أصدقائي من السياسيين...".

عزيزتي نارِين، شعرت لحظتها أن إسلام صادق مع نفسه ومعي أيضاً. كان الصدق ينضح من عينيه. أشعل أكثر من سيجارة، كان يطفئها وهي نصف محترقة ليشعل واحدة جديدة. كان في كلامه كأنه يتحدث مع نفسه، بلا قيود، دون خجل أو عقدة الشعور بالنقص، التي لا تسمح لمعظم رجال هذا الوطن أن يسرّوا بما في قلوبهم تجاه المرأة.

مع موجة ابتساماتي وإصغائي اللذيذ، كما كان يقول هو، استمر في كلامه: "أنا صديق الأنثروبولوجيا الراديكالية. قلبي، أو ما تبقى منه، يشفق على طبقة الفقراء، وأنا أفكر فيهم ليل نهار. أعتقد أنني في غاية الحرص والإصرار فيما يتعلق بتحقيق رغباتهم، كيفية توفير احتياجاتهم اليومية، وكذلك تنشيط القدرات والوسائل من أجل تقدمهم، وفي كافة المجالات. أعمل على أن يكونوا نافعين لأنفسهم، ويعرفوا شيئاً عن مصيرهم، وأتمنى أن تتحسن الظروف والأوضاع المادية لتنفتح أمامهم آفاق جديدة.

نهضت، اتجهت نحوه لا إرادياً، واحتضنته. ليس لأنه تكلم كلاماً جميلاً ومؤثراً، إنما لأنني كنت واحدة من أولئك الفقراء الذين كان يتحدث عنهم، وهو لا يعلم.

كانت عيناه تشرقان بالدموع، ولكن سواحل رموشه استطاعت أن تصمد أمام فيضانها. أخذ يدي وقبّلها، وبنغمة تشي بصدق واضح هذه المرة، قال: "مريم... أنا أ.................."، وقبل أن يكمل جملته وضعت أطراف اصابعي على شفتيه، وقلت: "ما يزال الوقت مبكراً يا سيد.. لا تستعجل".

لم ينزعج، ولم أنزعج أنا أيضاً لأنه قبّل أصابعي بشفتيه، وملأ كياني اليباب قَدْر مياه المحيط عشقاً. وقبل أن نعود أدراجنا أعطاني رقم هاتفه مرة أخرى، ولكنه هذه المرة كتبه على كف يدي، كي لا أضيعه ثانية.

❖

كنت أعرف أنه سيبوح لي بحبه إن عاجلاً أم آجلاً، لأن نفس الشعور كان قد غمرني، لكنني كنت في انتظار أن يبادر هو. كم هو شعور لذيذ يا نارِين. بدأت فراشات العشق تطير مرةً ثانية على مد البصر، وهي تؤدي رقصة الحرية على أنغام وأبيات وحدتي. ولكن خلف ستائر الحقيقة، الممزقة، كان يتم اغتيال تلك الفراشات، وأنا أبكي عليها. كنت أبكي عليها جميعاً: الأم، الأب، الابن، العذرية والحلم الأخير. كان بإمكان الجميع المكوث أكثر لأنني كنت في حاجة إليهم، ولكن كل

واحد منهم كان قد قرر ووصل إلى مبتغاه، بقينا فقط أنا وهذا الوطن.. كلانا يَبْكي الآخر في الخفاء.

ترى ما الذي بقي ولم أبكِ عليه؟

❖

كان إسلام يتصل بي كل ليلة، وخاصة بعد انتصاف الليل. وكنت أتصل أنا إذا صادف ولم يتصل هو. كان قد عوَّد أذنيَّ على سماع كلامه الجميل. وكانت نبرة صوته عذبة جداً، وبالخصوص عند قراءته للشعر والنثر. أحياناً كنت أقول له من باب الدعابة "حرامٌ ألا يكون هذا الصوت الجميل لرفع أذان الله، اذهب إلى المسجد وارفع الأذان، بدلاً عن مُلاّ سلفي ذي حنجرة خنزيرية غاضبة"، وكنت أضحك وهو لا.

عندما كان سكان المدينة يهجعون إلى منامهم، كنا نحن الاثنين نظل صاحيين كحراس الحدود؛ إلاّ أننا نحن اللذين كنا نتجاوز حدوداً إثر حدود. كان حديثنا في البداية ذا طابع رسمي، لكننا لم نقاوم كثيراً. وإزاء رغباتنا وغرائزنا الهائجة، رفعنا سريعاً الراية البيضاء. كنا نشتاق لبعضينا، وكما قلت فإننا كنا نتحدث مع بعضينا كل يوم، ولكننا لم نكن نلتقي كل نهار؛ لذلك كنا نعوض اللقاء بالحديث في الهاتف. أكثر من ليلة، كسرنا قيودنا. وعلى أجنحة رغباتنا وغرائزنا، حلقنا حتى بلغنا أجواء الحرية.

"ولكن الأوروبيين يقولون إن جسم الإنسان لا يكذب"

إنهم صادقون في هذا يا نارِين، جسم الإنسان لا يكذب. ومع ذلك، فإن الإنسان نفسه لا يؤمن بذلك، لأنه لا يبالي به أصلاً.

كان اسلام إنساناً رقيقاً جداً. كان يعرف كيف يتعامل مع المرأة حين تفصح عن نفسها وتعترف، وتستبد بها الرغبة في الجنس. كنت، في ليالٍ كثيرة، أضع سماعة الهاتف بين فخذي، وكنت أتخيل مقبض السماعة أحياناً يده وهي تعبث في جسدي وتفركه، أو شفتيه وهما تلحسان كل جزء في جسدي، وأحياناً أخرى...!

"وأحياناً أخرى تتحول إلى ماذا؟ استمري يا مريم"

كنت أهيم على وجهي من الحسرات، وفي النهاية كنت أبكي. كنت ألعن المجتمع والتقاليد والقوانين، لأنهم لم يكونوا يشعرون بالنيران التي كانت تشتعل داخلي. كم ليلة صيفية كنت أنام وأنا بين الحياة والموت. أموت في فراشي، وأنا نصف مبلولة ونصف ناشفة. كنت أموت، أنكسر، وكل شيء في عيني ينكسر.

❖

حتى نهاية الصيف، أي ثلاثة أشهر تقريباً، استمر وضعنا على ذات المنوال؛ في النهار: شخصين راشديْن ومنسجميْن، وفي الليل: لصّين ساذجين.

"وبعد ذلك؟"

بعد ذلك، وفي ليلة من ليالي تشرين الأول، عندما اتصل بي إسلام كالعادة، انتهت علاقتنا، هذه المرة أيضاً، بعبارة غريبة.

"كنت قلتِ قبل الآن إن إسلام قد دوَّن بداية تاريخك معه بعبارة غريبة أيضاً؟"

نعم، قلت ذلك.

"والآن، تقولين إن ذات الشخص قد أنهى ذلك التاريخ بعبارة غريبة أيضاً؟"

نعم يا نارين. صدقيني. ألا يبدو الأمر غريباً؟ ولكن لا تنسي أن الزمن بحد ذاته غريب أيضاً. لا ترفعي حاجبيك، ولا تقطي جبينك، تفكير الإنسان يتحمل كل شيء.

في الليلة الأخيرة، وعن طريق الهاتف طبعاً، كنت على وشك أن أبلغ هزة الجماع. طلبت منه أن يأتيني من قُبُل كي أحس بأنوثتي، وأيضاً ليُطفئ نار جسدي. قال لي إنك ما زلت باكراً ومن الافضل أن آتيكِ من دُبُر. كنت أود إفهامه بأن طلبي مختلف، ولكن اتضح لي أن طلبه أيضاً مختلف، لذلك فقد تظاهر بعدم الفهم. صحيح أنه لم يقل "أنت عاهرة، ولا أحد يريدك زوجة له"، ولم يقل أيضاً "أنت فتاة عانس، وأصبحت بائرة لدى أهلك"؛ لكنه قال لي: "أنت تودين أن أطأكِ من الأمام كي أتورط، وفي النهاية تبقين لي؟!".

هل تصدقين أن شخصاً شيوعياً يتفوه بهذا الكلام يا نارِين؟

"أشعر بك يا مريمي، ولكن من المؤسف أن الشخص الذي يحبه المرء يفكر بهذه الطريقة"

أعتقد أن إسلام الشيوعي لم يكن يعلم أن عذريتي قد انتُهكت من قبل. ومنذ ذلك الوقت، وأنا أسأل نفسي: ترى ماذا كان سيقول لي، لو علم يومها بالأمر؟

الحب هو جزء من وجود الرجل، لكنه كل وجود المرأة. ولكن إسلام الشيوعي لم يكن يعرف ذلك أيضاً.

المُـلا

انزويت بالكامل طوال شتاء ذلك العام. كنت بحاجة إلى استراحة طويلة الأمد، بعيداً عن البشر، بعيداً عن المجالس، بعيداً عن تلك الأماكن التي رأيت فيها إسلام. صحيح أن الذكريات جميلة بعض الأحيان، لكنها تستثير المرء.

وهكذا عزلت نفسي في خلوة مثل بقية المرات، ولكن- هذه المرة- كنت أستأنس بلوحاتي القديمة. وقررت أن أقيم هذه المرة معرضاً "مريمياً"، معرضًا خاصًّا وشخصيًّا، أُقيمه لنفسي فقط. ولكن، كيف السبيل، وهذه المدينة كوكر للجاسوسية لا تخفى فيها خافية؟

لم أشأ، كما في كل مرة، أن تُجهز لافتة يُكتب عليها "برعاية فلان أو علاّن". ولم أشأ كذلك أن يحضر أي شخص بكبرياء ويتكرَّم لكي يضع توقيعه في سجل الزيارات. لم أشأ أيضاً أن أكون مجبرة على شرح وتوضيح مواضيع اللوحات، لوحة لوحة، لكل زائر، إحدى عينيه

على اللوحة والأخرى على صدري وبطني ساقيَّ، وهو يهز رأسه، كذباً، دلالة الفهم. لم أشأ أيضاً أن يتظاهر بعض الأدعياء بالخبرة؛ وعلى حساب البعض الآخر، من الذين آثروا الصمت، يلقون أسئلة مكررة عفا عليها الزمن. نعم، وددت أن أكون وحيدة، لأنني في مأساتي أيضاً كنت وحيدة دوماً.

نارِين، ذات مرة، وفي إحدى المعارض المشتركة مع فنانين آخرين، وقف أحد الأشخاص المسؤولين في مدينتنا "دهوك" هذه أمام إحدى لوحاتي. وبعد تمعن، قال لي ذلك المسؤول: "وهل هناك قطارات في كردستان كي ترسميها في لوحة؟"

لم أفهم أية كردستان كان يقصد ذلك المسؤول؛ كردستاننا الموجودة في أعماقنا نحن الفقراء، أم كردستان بعض المسؤولين في محفظات نقودهم؟

مرة أخرى، قال لي شخص آخر، وكان يعتبر نفسه مثقفاً، وهو يتحدث عن إحدى اللوحات "لوحاتك تضج بالتشاؤم، حاولي أن تكوني أكثر تفاؤلاً، لأن الحياة حلوة، وما يزال الوقت مبكراً جداً بالنسبة لك". كان أمراً مستغرباً جداً بالنسبة لي أن يتحدث إنسان ميت عن حلاوة الحياة، أو أن يقول للشخص المقابل، ما زال الوقت مبكراً بالنسبة لك، وكأنَّ العمر تاريخ مدون على جبين المرء؛ والخبراء، من أمثاله فقط، بإمكانهم قراءته. ولم أنزعج، لكنني ضحكت عليه في سرِّي، لأنه لو كان يمتلك أحلاماً وتغييراً وحياة، لم يكن ليقول ذلك.

وأخيراً استقر رأيي على عرض موجودات المعرض في مكان خاص جداً، هل تعرفين أين يا نارِين؟ لا أعتقد أن أحداً كان بإمكانه أن يعرف، لأن ذلك لم يُعلن في وسائل الاعلام.

"أين يا مريم؟"

في غرفتي الصغيرة، وفي الليل.. منتصف الليل.

نعم. وضعت لوحاتي كلها بالترتيب، من أول لوحة حتى لوحة "دخان القاطرة"، وكذلك اللوحة ما قبل الأخيرة "سَميان".

"هل هذا يعني أنك سترسمين لوحة أخرى فقط، وينتهي الأمر؟"

هكذا أتوجس، رغم أنني أُريد الاستمرار في الرسم، لأنني بفضل الفن وهذه اللوحات ما أزال، لحد الآن، أتناول رغيف الأحياء. دعينا نعود إلى سابق حديثنا...

"تفضلي مريم، أنا مصغية"

ذهبتُ إلى سوق الأقمشة، طبعاً ليس من أجل أن أسأل عن آخر صيحات الأقمشة لخياطة بدلة نسائية كردية؛ وإنما لشراء قماش أبيض يستخدم ككفن للموتى لتغطية لوحاتي. خلال النهار، كنت أغطي كل لوحة بقطعة من قماش الكفن، كي لا تتعفر بالغبار. وفي الليل، كنت أكشف الغطاء عن اللوحات، وأشعل شمعة أسفل الغرفة، ليستمر معرضي هذا ثلاثة أيام بلياليها. كان المعرض يبدو في النهار كمقبرة

بيضاء، وفي الليل كمملكة بيضاء تغفو فوق السحاب، من تلك التي نسمع بها في أساطير السلفيين فقط.

"البشر، الثعابين، الشروخ، التفاح، شواهد قبور الموتى ودخان القاطرة" كانت كلها تنبعث حية، تقفز من خلف قطع القماش، وتتجول في غرفتي جيئة وذهاباً.

نارين، كل واحد منهم كان قد أصبح صديقاً، لم يبق صديق منهم لم يتحدث لي، ولم يبق صديق منهم لم أتحدث إليه. في دقائق الزمن تلك شعرت كأنني "إينانا" أو "أناهيتا". ولكن بعد أن تناهى إلى سمعي أصوات شجار منجول مع كازين في الغرفة الأخرى، عرفت وقتها أنني ما أزال مريم.. مريم تعيسة الحظ، المنحوسة الطالع، وليس غيرها.

❖

بين تشرين الأول من عام ألف وتسعمائة وستة وتسعين وحتى تموز من عام ألفين واثنين، بقيت وحيدة مرة أخرى. حاولتُ هذه المرة، جاهدةً من كل قلبي، أن أحمي نفسي كي لا أقع في شِباك أي كائن ذكوري آخر في هذه الغابة. وقد وُفقت إلى حدٍ ما، ولكن إن جئتِ للحقيقة، عفواً ولكن بعد أن عرفت إسلام، أخذت كلمة "الحقيقة" تتردد على لساني كثيراً؛ فقد عانيت الكثير لكوني امرأة وفنانة، ولا أستطيع العيش دون عشق. كفنانة، أستطيع أن أحب الكثير من الأشياء لأن الفن بحد ذاته محبة، ولكن كامرأة؟ لا تنسي يا عزيزتي إن عدم

وجود الرجل في حياة المرأة يقلل من أهمية وجودها، ويحوِّل أيامها إلى أرض مقفرة.

"ولكن أي رجل يا مريم؟"

أنا أفهم قصدك. ولكن- في هذا البلد- كل الرجال رجال، وكل النساء نساء. كلهم يقترنون بنفس الطريقة. أنا لا أفكر بهذا الأسلوب، ولكني لا أستطيع أيضاً أن أطرد هذه الفكرة من رؤوس الكثيرين. مقاييس الرجولة والأنوثة لم تخرج بعد عن حدود الشكل الخارجي، وما بين الفخذين.

نارِين، أحياناً ما أعتقد أن الكثير من الأفكار والمفاهيم السيئة لدى ناسنا قد غدت، بمرور السنين، مثل الأعضاء في جسم الإنسان، وبحاجة إلى تدخل جراحي.. ماذا تقولين؟

"صحيح أن تلك الأفكار سقيمة، ولكن بتر تلك الأعضاء سيؤدي إلى تعويق الإنسان نفسه"

يبدو أن ذلك صحيح أيضاً.

❖

على أية حال، دهوك محافظة؛ وهي واسعة بما يكفي. ولكن نتيجة لذكرياتي المرة مع كلا الرجلين، هَزار البيشمركة وإسلام الشيوعي، أصبحت "دهوك"- بالنسبة لي- قبراً ضيقاً. كنت أشعر بالغربة، ويصيبني الضجر من روحي. كنت أعلم أنني ما أزال رقماً، فقط حين أقف في

الطوابير التي كانت تستطيل يوماً بعد آخر. وما سوى ذلك، فلم أكن حاضرة في أية حسابات. وضعي الاقتصادي تدهور كثيراً. وما عدا بيع بعض اللوحات، لم يكن لديَّ أي مدخول آخر يمكنني إعالة نفسي به. تعلمتُ الكتابة للصحافة مضطرة، وكنت أكتب عدة مقالات من أجل المكافأة. وأحياناً كنت أنشر نفس المقال في أكثر من مطبوعة. لم تكن الكتابة من اختصاصي؛ ولكن كما تعلمين، فلا وجود للمختصين في هذه المدينة. ولذلك، غدت الكتابة، مثل الكثير من الأشياء، عملاً للعاطلين عن العمل.

كنت مستعدة لأن أتعلم أعمالاً أخرى أيضاً، كالخياطة مثلاً، فقط كي لا أحتاج، مضطرة، إلى اللئام. وأعتقد أن الانسان الفنان، لو أصرّ، فإنه سيحقق النجاح في أي عمل يريده، لأن لديه رؤية شاملة، وآفاق تفكيره وخيالاته أبعد حدوداً من بقية الناس؛ وأيضاً لأنه إنسان ذو إحساس مرهف، وأسلوب تعامله مع الأشياء مختلف وخاص أيضاً.

هكذا، وبفضل فكرة تعلم الخياطة، تعرفت إلى بعض فتيات محلتنا والمحلات المجاورة.

بعد ذلك، وببعض الدبلوماسية التي تعلمتها من المسؤولين، استطعت أن أكوِّن بعض الصداقات أيضاً. وخلال السنوات الخمس أو الست تلك، استقرت أوضاعي الاقتصادية، ووقفَتْ على قدميها. ابتعدت عن الفن لفترة من الزمن، حيث تملكني الطمع، بعد أن رأيت المال يجري بين يديْ. كنت أنوي أن أُبرهن على نجاحي، ليس في الفن

وحسب، وإنما في التجارة أيضاً. تصرفت ـ هذه المرة ـ بذكاء، وقررت أن أفكر في مشروع مستقل خاص بي.

نارين، لقد عانيت ما يكفي من العوز والحرمان. رأيت الهول فيما مضى، لذلك اعتقدت بأن الوقت قد حان كي أرتب أوضاعي، على الأقل من الجانب الاقتصادي. أم أن لك رأياً آخر؟ إن كان لديك قولي!

"لا عزيزتي، هذا تصرف اعتيادي. إنه حق بسيط ومشروع أن يسعى الإنسان إلى بناء صرح استقلاله ثم يصونه"

لماذا لايكون عمل الخياطة مورداً رئيسياً؟ لماذا لا أحاول أن أُثبت لمنجول و"الرجل" وآخرين أنني أستطيع الاستمرار بدونهم أيضاً؟ فأنا لن أنسى أبداً عندما كنت أجثو خلف مهد أخي الصغير كوفان، مستشفعة به، كي توافق منجول وتعطيني ريالاً واحداً لشراء بعض الدارْسين.. لن أنسى أبداً يوم أجهضتُ في مستشفى "آزادي"، ولم يكن معي حينها ثمن أُجرة التاكسي لأعود إلى البيت.. وأحداث كثيرة أخرى لا تسعها حتى اللوحات، لا أرغب في الحديث عنها.

كانت أجواء ثقتي بجنس الرجال قد تعكرت. ولكن أيَّ مشروع يلزمه رجال، خاصة في مجتمع ذكوري. لم أكن أعرف كيف أتصرف وماذا أقول، حتى تعرفت على شيماء.

وكانت شيماء هذه، وهي فتاة محبوبة، تتردد عليَّ في أوقات المناسبات والأعياد والحفلات لأضبط لها زينتها وأناقتها. كانت من عائلة غنية، ولكنها كانت كريمة كذلك. وبمرور الأيام، ترسخت صداقتنا،

غدونا صديقتين، وبدأنا نتقابل خارج البيت أيضاً. كانت في حاجة إلى صديقة مثلي لتصغي إليها حين تتحدث معها. كانت شيماء كنهر حُصرت مياهه، مهيأ للانفجار في أية لحظة.

"وأين هي الآن، وماذا تفعل؟"

لم أرها منذ زمن بعيد، ربما كانت في دهوك، وربما لا. لا أعرف بالضبط، ربما تكون قد تزوجت، وإلاّ فإنني لا أعتقد أنها تمارس عملاً، لأنها البنت الوحيدة لعائلتها. وبحكم الحياة الأرستقراطية للعائلة، فإنهم لا يسمحون لها بمصادقة أيٍّ مَن كان.

بعد أن تعلقت بي شيماء، أفصحت لها عن فكرة مشروعي، وأكدت لها أن أفضل حل لتنال حريتها كامرأة، هو العمل، ولكن عملاً مستقلاً، لأن المرأة إذا استقلت من الناحية الاقتصادية، فإن الكثير من الأشياء ستتغير. ووافقت عائلتها على المشروع كما كنتُ أتمنى أنا، لا كما كانت شيماء تطلب. وقرر شقيقها الحاج هاوار أن يشاركني برأس ماله في المشروع، وأنا بعملي وخبرتي في الخياطة. وكان شرطه ألاّ نقف، لا أنا ولا شيماء، في الدكان لأن غيرته لا تسمح بذلك، كما قال. اقتنعت أنا، ولكن شيماء كانت تريد المزيد من المكاسب، لكنها لم تُوفق في محاولاتها.

استأجرنا، شراكة، دكاناً وسط السوق، ووظفنا فيه فتاتين للعمل فيه، وهما مها وريما. كانت الفتاتان تشتغلان في الدكان، وأنا وشيماء نضع التصاميم والخطط ونعدها لهما.

"اسم شيماء إسلامي هو الآخر!"

نعم. وقد كانت فتاة في ريعان الشباب، كان عمرها خمسة وعشرون عاماً فقط، أديم وجهها كبياض الثلج، لكنها كانت تغطيه بالحجاب. كان كل أفراد عائلتها إسلاميين وذهبوا جميعاً إلى الحج؛ والدها الحاج حاجي، وأمها الحاجة رنديَ، وأخوها الحاج هاوار. ولكن شيماء كانت شيئاً مختلفاً، وأعتقد أنه لو كانت ترغب في الذهاب إلى الحج لأسرَّت لي بذلك.

❖

كانت شيماء تتعامل معي، لا كصديقة وحسب وإنما كأختها الكبيرة. كانت تطلب رأيي في أية مسألة كانت. وكنت سعيدة بذلك، ولكن يبدو أن الحاج هاوار لم يكن مرتاحاً للأمر.. كان يشيح بوجهه كلما رآني، ويتجنب مصافحتي بحجة الوضوء. كان ذلك التصرف يولد لديَّ هاجساً بأنني نجسة. أكثر من مرة قال لأخته شيماء كي تبلغني بأن أرتدي الحجاب، ولم يكن يعرف أن شيماء نفسها كانت تريد أن تخلعه، ولكنها تخاف منه. كانت تبدو كراهبة ملتزمة، تشعر بالضياع، وتجد ذاتها فقط حين تكون معي.

كانت تقول لي على الدوام: "أخت مريم، ما دمت لا أستطيع أن أجعلك تصبحين مثلي، لذلك أنا سأصبح مثلك".

"وماذا كنت تقولين لها؟"

كنت أقول لها: "فلتكن كل واحدة منا كما هي".

"وماذا عن الحجاب، ماذا كنت تقولين لها؟"

كنت أطلب منها أن تقول لأخيها: "مريم تقول: الله كريم"

إذا أردت أن تتعاملي مع أشخاص كهؤلاء فيتوجب عليكِ أن تعرفي أدوات التعامل اللازمة، وأن تحددي خياراتك أيضاً. فقط مع أمثال هؤلاء الاشخاص لن يكون في مقدورك أن تظلي حرة في خياراتك وتعابيرك، ولن تستطيعي أن تكوني صادقة مع معايير الواقع. الأشخاص المؤمنون مثل الحاج هاوار يحبون دائماً ـ وفي كل مكان ـ أن يذكروا الله والنبي والصلاة والسلام عليه.

"الله كريم، إن شاء الله، وأثابك الله..."، هذه التعابير التي غدت مع الوقت مصطلحات في قاموس الاستعمال اليومي، لها تأثير إيجابي على نفسية المؤمنين، وتعمل على أن يقيِّم هؤلاء، مسبقاً، تفكير مستخدم هذه المصطلحات تقييماً إيجابياً. ولهذا، فقد قررت منذ البداية أن أستخدمها، وخاصة عندما أتحدث مع الحاج هاوار.

"ولكن بهذا الشكل من التعامل لن يبقى المرء كما هو، وسيضطر الى أن يؤقلم نفسه.. أليس كذلك؟"

ربما. ولكن لا تنسي، لقد قلت: مع المؤمنين، وغالبية الناس في هذا الزمن مشككون.

نارِين، في زماننا هذا من الصعب على المرء أن يبقى على حاله. في أوروبا، كما تعلمين، لن تجدي أحداً مضطراً إلى أقلمة نفسه مع الواقع، لأن احتياجاته الشخصية مؤمَّنة إلى حد كبير؛ كل شخص يتصرف كما هو والجميع يحترمه كما هو. ولكن هنا ، في الشرق، احترام الناس لك قائم طالما كنتَ الشخص الذي يريدونه هم، وليس ذلك الشخص الذي تود أن تكونه أنت.

بقدر ما هم فقراء هؤلاء الناس، بقدر ما هم غريبو الأطوار أيضاً.

❖

كان الحاج هاوار شاباً محترماً، ولكنه كان دوغمائياً الى حدٍّ ما؛ ليس لأنه كان ملتزماً بالكِتاب والسنّة، ويستعمل المسبحة وعود السواك، ولكن لأنه كان يريد أن يطبق كل ما يرد في القرآن والسنَّة في الواقع اليومي، دون أن يأخذ المكان والزمان والتغير (الحقيقة المطلقة) بعين الاعتبار. كان يقول "الأفراح والأعراس حرام، وأي مجلس لا يرد فيه ذكر الله ورسوله مجلسٌ حرامٌ تحل عليه اللعنة". وكان يقول أشياء كثيرة أخرى لم تعد تنسجم مع نظرية الأنثروبولوجيا، ولكن أحداً لم يجد في نفسه الجرأة للرد عليه، أو على الأقل توجيه بعض الأسئلة إليه.

كان الحاج هاوار يعرف جيداً ما الذي يفعله، وما الذي يريده من هذه الدنيا، كما كان هو بنفسه يقول لي. كان دائمًا ما يقول إن هذه الدنيا فانية زائلة، والإنسان مجرد ضيف ثقيل الظل، سرعان ما سيرحل عنها بعد سنوات إلى عالم الحقيقة؛ طبعاً يقصد الدار الآخرة التي تحدثنا

عنها قبل قليل. كنت أريد أن أشرح له بعضاً من فلسفة "أفلاطون" الذي كتب بشكل مفصل في ذلك المجال، ولكني كنت مترددة خشية أن يسيئ فهم قصدي.

حسب منظوري أنا وأنت ربما كان هو، إلى حدٍّ ما، أصولياً؛ ولكنه- في نظر أشخاص كثرٍ آخرين- نموذج للإنسان الصالح في كل زمان. كان يطلق لحيته، لكنه كان إنساناً نظيفاً، كانت طلته وملامح وجهه وسيمة إلى أبعد الحدود، وكان رجلاً ذو قوام ممشوق طويل، فاحم الشعر، أديم وجهه أبيض. تخرج من كلية الشريعة، لكنه لم يرغب في التعيين، لأنه فضَّل أن يدير أعمال والده الحاج حاجي التجارية. كان ينوي الزواج منذ فترة طويلة ولكنه، حسبما كانت تقول شيماء، لم يكن يجد الفتاة التي تعجبه.

"وبعد ذلك؟"

ثم عثر على الفتاة التي تعجبه.

مع استمرار علاقة العمل كنا نقترب أكثر من بعضنا. في أحيان كثيرة، ونزولاً عند رغبته، كنا- أنا وشيماء- نرافقه في جولة مسائية؛ وكانت شيماء تحاول، عن قصد، تركنا وحدنا. أعتقد أنها كانت رغبته هو، لأن طباعه كانت قد تغيرت، وبدأ يقبل بمصافحتي. كنت أشعر كأنني في رفقة شاب، ولكن عندما كان شخص ما يلتقيه ويخاطبه بالقول: حاج هاوار، كانت مشاعري تذبل على الفور، فأُخرج مرآتي

الصغيرة من حقيبة يدي، وأتطلع في ملامح وجهي، ثم أضحك لا إرادياً.

❖

كنت أريد استغلال أوقات جولاتنا المسائية فأعطيه انطباعاً صادقاً حقيقياً حول شخصيتي، بعيداً عن التعابير والمصطلحات اليومية، ليتعرف عليَّ أكثر. ولكنه للأسف كان يتعامل معي، في كل مرة، ككائن أنثوي فقط، وكأنه آدم وأنا حواء التي خُلقت من ضلعه الأعوج.

بعد ذلك، عندما كشفت لي شيماء عن أنه يرتاح لي، وأنه يسأل دائماً عن أوضاعي، سأعرف لماذا كان يريد، متقصداً، أن ينقل لي تلك الأفكار الغريبة والمشاعر الهرمة.

كان يعرف أنني لا أصلي، ولا أصوم، ولا أؤدي أية فروض أخرى، وإنما مسلمة بالهوية فقط؛ ولكن كان لديَّ إيمان مطلق بنفسي وإمكاناتي، فكان يقول لي كل مرة "إن شاء الله ستؤدين كل الفروض التي عليك".

ولو أنني كنت أرغب في ذلك لحاولت تأديتها، ولكني لم أكن راغبة. إن الله لم يقل لي لا تؤدي الصلاة ولا تصومي، ولذلك فإنني لا أصدق أيضاً أنه يقول لي افعلي ذلك. وهل قال الله لمحمد مَيْريَ أنْ اذهبْ وانتهكْ عذرية مريم؟

❖

مـرت أيـام، وأردتُ مـرةً أخـرى أن أسـتخدم كيـد الـنساء. كنـت في حاجة إلى أن اختبر مشاعري، وكذلك إلى أن أمنحه الفرصة ليتأكد مـن مشاعره. تُرى لماذا يسأل شيماء عني كلما سكنت حركاتي؟ أتراه يشتاق لـرؤيتي، أو يفكـر فيَّ، أم أنه يخـاف مني؟ هـل تـراه يخشى على شـقيقته، لأنه سمع شيئاً عن حياتي الماضية؟

ومـن أجـل ألاّ أبقـى وحيـدة مرة أخـرى في هـذه المحطة الجديـدة، فقـد كـان مـن الـضروري أن أحمـل معـي إلى لقائنـا أسـئلة كـثيرة. بعـد عـدة أيـام قـضيتها في الخلـوة، قـصدت دكانـه كـي لا يبحـث هـو عني. كنـا قـد رفعنـا كل أنـواع الكلفـة بيننـا، فكـان على وشـك أن يأخـذني في أحـضانه لما رآني أمامه، ولكني كنـت قد قررت أن أستقبله ببرود لأرى ردة فعله. وبـدلاً من أن أتغير أنـا خـلال الفترة الـتي أمـضيتها في الخلـوة، كـان هـو نفسه قـد تغير تمامـاً، وكأنـكِ نقلتِه من يدك هذه إلى تلك، كما يقال. كان يعبِّر عن تأييده لأفكاري في أي حديث نتطرق إليه، كان يقول "هو ما تقولين". إذا قلتُ هذا أحمر، كان يقول أحمر، وإذا قلت أسود فإنه يؤيد ذلك.. وهلمَّ جرا!

وغـدا الحـاج هاوار يهـتم بالمظاهر وأصـول التعامل. كان يتصل بي كل ليلـة، كالفريـضة، ويتحـدث معـي لـساعات طويلـة. وفي الخـارج، عنـد التجوال، كان يلصق كتفه بكتفي، وكأنه يريد أن يلفت انتباه المارة. وإذا دخلنـا إلى مطعـم، يبـادر إلى سـحب الكرسـي لي قبـل أن يجلـس هـو علـى كرسيه.

في الحقيقة كان يحترم نفسه كثيراً، ولكن على حساب مشاعري وخيالاتي، لأنني كنت صافية النية، مستلقية تحت ظلال وارفة كما يقال؛ ولكني لم أكن أعلم أنه سيثير شكوكي مبكراً، وبخاصة حول مسائل الدين والشريعة وأسباب الوجود. كنت أعتقد أنه يحبني، ولذلك فقد بدأ يتغير. كانت أسراب الأفكار تنطلق محلقة من رأسي، لكنها سرعان ما كانت تتجمد في سماء إيمانه، وتهوي على رؤوسها كالطيور الغطاسة.

كان يريد أن يصبح إلهاً جديداً، ويخلق مني، وليس من الطين، إنساناً آخر؛ أن يمنحني الموت ويحتفظ لنفسه بالخلود، أن أُصبح أرضاً ويكون هو السماء، ولكن الروح؟!

كنتُ قد تعبت من سرد القصص والحكايات الميثولوجية والاستماع إليها، مثل: المساواة، العدالة، البحث عن الخلود، والزواج لأكثر من مرة، ولكنه كان يحاول أن يكررها، ولكن بأسلوب مختلف.

كنت أشك أنه سيغفر لي ذنبي بالصلاة والصوم وتقديم القرابين، أو أن يمنحني فرصة للمراجعة والإصلاح. من يدري، لعله سيعاقبني بنفسه في يوم من الايام؟

وبسؤال بسيط ومشروع، وعن قصد، أردت أن أقطع شكّي بيقينه، فقلت له "حاج هاوار، الذنب في رأيي هو عندما يحتقر الإنسان شخصاً آخر، ترى ما هو الذنب لديك؟"

"الذنب عندي يا مريم هو عندما يزني الإنسان".

محمَّد المهدي

بعد مبادرتي في ذلك الموقف الذي أعتبره جريئاً، وذلك القرار الذي يبدو أنه كان مصيرياً، تعرض الحاج هاوار إلى مرض لفترة طويلة.

كان مرضه يشبه الحمَّى، فأخذ جسمه ينحل يوماً بعد آخر. وحسبما عرفت من شيماء، التي كانت تنقل لي أخباره أولاً بأول عن طريق الهاتف، فإنه أُدخل المستشفى حيث رقد فيها أحد عشر يوماً، كان خلالها لا يأكل ولا يشرب، ويهذي في نومه. وفي لحظات الغيبوبة، كان قد نسي ذكر الله والنبي والصلوات، ويهذي باسمي فقط.

لم يستطع أحد تشخيص مرضه. كنا نحن الثلاثة نعرف أنه أنا مريم هو داء ودواء الحاج هاوار. إنه لعبء ثقيل أن يُصبح المرء داءً ودواءً لشخص آخر. ولم يكن هذا من اختياري، ولهذا أيضاً فإنني لم أكن أشعر بتأنيب الضمير. ولكني كنت أستطيع أن أختار، أو على الاقل أن أدرك أن الحاج هاوار ليس دائي ودوائي.

كنت أُشفق عليه كثيراً. وطبقاً لما تمليه المبادئ والضمير في حالات كهذه، فقد كنت أريد أن أقدم له شيئاً، ولكن الضمير والمبادئ تضعف، أحياناً، أمام القلب والمشاعر.

نارين، بإمكان المرء أن يسيطر على عقله ورغباته وغرائزه، ولكن يَكذب من يقول أنه يستطيع أن يكبح جماح قلبه ومشاعره.

"قلب الإنسان ليس ملكاً له، هكذا يقولون في الدول الاسكندنافية"

صحيح ما يقولون. فقلب المرء ومشاعره حرة. ولكن على هذه الأرض الحبلى بالدم، بدلاً من أن يحرر القلبُ والمشاعرُ الإنسانَ، فإن الإنسان، للأسف، يجعلها أسيرة.

مع الحاج هاوار، حررني الاثنان من ذلك القيد. أصبحت متأكدة من صواب موقفي وقراري بأن ذلك الشخص ليس جديراً بي، أو أنني غير نافعة له. ومهما يكن الأمر، فإن حياة مشتركة بيننا ستكون صعبة جداً، لأننا كائنان مختلفان، بتركيبتين مختلفتين.

من تموز عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثمانين إلى عام ألفين وخمسة- حين نلت حريتي- ليست بالفترة الطويلة.. أليس كذلك؟

"ليس كثيراً، خاصةً إذا كان المرء يعيش في الشرق"

في تلك السنوات المظلمة العجاف، استطعت أن أبني "مريم" الإنسانة، رغم أنها كانت تنهار بين فترة وأخرى. صحيح أنني جريحة،

وجرحي لا يمكن مداواته، ولكني أفتخر به. فماذا يعني إذا جُرح المرء في حرب الوجود والعدم؟

الحربان العالميتان، الحرب الباردة، حرب الخليج الأولى، وعمليات الأنفال[9] كلها انتهت؛ ولكن حربي مع مخلفات التراث البالي ما زالت مستمرة.

أود أن أبرهن لمنجول و"الرجل" و"الفرسان الثلاثة الواقفين أمام قلعة مريم بلا بيارق" أنهم اختاروا الموت، ولكني اخترت الحياة.

❖

ذهب الحاج هاوار، وذهبت معه كل الخطط والمشاريع المستقبلية. أنهوا شراكتي في الدكان بكل صلف، واحتفظوا به لأنفسهم. كنت أود- من ناحيتي- أن تستمر شراكتنا، لأن مداخيل الدكان كانت جيدة، وكان العمل فيه يدرُّ علي خيراً كثيراً. وكنت أفكر، إذا لم تستمر شراكتنا كما يجب، أن أشتري حصتهم في الدكان، ويصبح لي وحدي؛ وحينها أُسلمه إلى مها وريما، لأنني لن أجد أفضل منهما. ولكن يبدو أن الحاج هاوار كان يريد الانتقام مني، رغم أن شيماء كانت تحاول تبرير ما يفعله.

---

[9] الأنفال: إشارة إلى الحملات العسكرية التي قامت بها قوات الرئيس العراقي السابق صدام حسين ضد القرى الكردية، في كردستان العراق عام 1988، وذهب ضحيتها حوالي 182000 إنسان، لا يزال مصيرهم مجهولاً لحد الآن، وتدمير حوالي 4000 قرية كردية.

وأخيراً، وافقتُ على بيع حصتي في الدكان له، لكني لم أساوم على السعر، لأن خياراتي في البيع كانت كثيرة.

بقيت دون كسب أو عمل لمدة شهرين، أي حتى شهر آيار. كانت لديَّ عدة أفكار في رأسي، ومنها: أن أبيع مصوغاتي الذهبية، الأساور والخواتم، ومع مبلغ حصتي من بيع الدكان أشتري به سيارة تاكسي يعمل عليها سائق بالأجرة. لكن يقال إن فكرة التاكسي ستكون ناجحة، فقط، إذا كانت السيارة بيد صاحبها. وهكذا، فقد نحيت جانباً فكرة التاكسي. والتجارة أيضاً لا تجوز لي، لأنني أنثى ولا يمكنني السفر بمفردي إلى "دبي" و"الصين" كل مرة.

إذن، ماذا عساي أفعل في هذه الحال؟

كنت أخشى أن ينفد ما عندي من مال، فيغدو الفلس بالنسبة لي "فتاح باشا"، كما يقولون. وكان ذلك حتى يوم عدتِ أنتِ إلى الوطن، وداهمتني فكرة الهجرة إلى الخارج. ولذلك، قلت لك في بداية سهرتنا "ما أزال أجهل سبب عودتك الى الوطن؟"

طبعاً، كنت أعرف أن العيش في الخارج أمر صعب، وخاصة بالنسبة لشخص فنان، أو فتاة ليس لها أحد هناك. ولكنه هنا صعب أيضاً يا نارين؛ لم يبق لي أحد سوى كوفان وكازين، لكنهما مشغولان بدراستهما، ثم ماذا يمكنهما أن يفعلا؟ تصوري، رغم الحال التي أنا فيها، إلا إنني أُشفق عليهما، لأنهما يترعرعان في كنف منجول.

❖

وقعت في دوامة من الأفكار، هل أهاجر إلى الخارج أم لا؟

كانت المرة الأولى التي أخاف فيها من الجغرافيا. صدقيني، لقد خفت، وما أزال أخاف من أشياء كثيرة في حياتي، مثل: البطالة، الرجال، زوجة الأب والفقر. هناك لا توجد بطالة، ولا زوجة أب، ولا فقر. هناك، يوجد رجال فقط، وهؤلاء تحولوا إلى روبوتات، يعملون في النهار والليل. لا يبرمون شواربهم، أو يقيسون "الأغشية"، هم يؤمنون بالنور، وليس بالظلام و"الأغشية".

على أية حال.. لقد توصلت إلى قناعة تامة بأنه ليس فقط الأهل، بل لم يعد لي حتى مكان في هذا البلد. طالما كنت غريبة في بلدي ويتعاملون معي، وخاصة الجنس الآخر، كشخص غريب، فليكن ذلك إذن في بلد آخر، مع أُناس آخرين. فلأكن غريبة هناك، وأقضي ما تبقى من سنيّ عمري بعيداً في الخارج.

وهكذا نويت السفر، وبدأت ـ سراً ـ التحضيرات اللازمة. وقبل أن أبدأ ببيع بعض لوحاتي وحاجياتي، ذهبت إلى البورصة[10]. هناك سألت عن كيفية الحصول على باسبورت، وتفاصيل إجراءات السفر المعتادة.

---

[10] بورصة دهوك: كانت بورصة دهوك (خلافاً لاسمها)ـ خلال عقد التسعينات من القرن الماضي، وحتى سقوط النظام العراقي عام 2003ـ المكان الوحيد الذي يمكن الحصول فيه على جواز سفر بالنسبة لأهالي المنطقة، بسبب حصار الحكومة العراقية على إقليم كردستان، وسحبها لكافة الدوائر الرسمية من مدنه. وكان يتم تهريب

في بورصة "دهوك"، شاهدت الكثير من الوجوه، وسمعت الكثير من الأصوات، لكني وجدت القليل من الحلول. وبالصدفة، شاهدني هناك أحد الأشخاص، من الذين يشتغلون في البورصة، وعرفني على الفور. قال لي إنه معجب بفني، وقد حضر لمشاهدة كل معارضي الفنية، وإنه اشترى لوحة في كل معرض زاره. وأبدى سعادته لرؤيتي، وأعلن عن استعداده لمساعدتي. أبلغته أنني لا أعلم شيئاً عن أحابيل البورصة، وكيفية الحصول على باسبورت، وسأكون شاكرةً له لو قام بترتيب الإجراءات اللازمة للسفر.

كان اسم ذلك الشخص بيكَس[11]. لم يكن صحفياً، ولكن بحكم تجربته في تلك المسائل، راح يطرح عليَّ الأسئلة كصحفي: "مريم... لماذا تريدين السفر إلى الخارج؟"

فأجبته، كالبريء الواثق من نفسه "لأنه لست أنت فقط بدون أهل!"

قال لي بيكَس إن مسألة السفر بحد ذاتها بسيطة، ولكن الصعب فيها أمران، ويجب تأمينهما، أولاً: باسبورت جديد، ثانياً: رجلٌ يرافقني حتى عبوري من كردستان إلى الجانب الآخر من الحدود. لكنه طمأنني، وقال بلهجة واثقة: "لا تحملي هماً، دعي الأمر لي".

الجوازات من بغداد والموصل، ويتم تنظيمها وبيعها في بورصة دهوك إلى مَن يريدون السفر إلى الخارج عبر تركيا.

[11] بيكَس: تعني الشخص الذي لا أهل له، أو بمعنى أصح: المقطوع من شجرة.

كل شخص قابلته كان يقول لي "سلمي أمرك إلى الله"، لكن بيكَس قال لي "أُتركي الأمر عليّ".

❖

بعد بضعة أيام، اتصل بي بيكَس وأبلغني بأن الأمور قد جرت على ما يرام: الباسبورت الجديد والشخص المرافق تم تأمينهما، وما عليَّ سوى أن أدفع الحساب ليتولى هو بقية الأمور.

غمرتني السعادة لما سمعت الخبر، وأسرعتُ طائرةً إلى السوق لألتقط بعض الصور الملونة الحديثة. في الطريق، تخيلت نفسي وأنا أمشي في شوارع إحدى العواصم الأوروبية، مثل ستوكهولم أو أمستردام. كنت في عجلة من أمري، ولذلك اجتزت عدة محلات للتصوير الفوتوغرافي، بعد أن رأيت فيها زحاماً. وفي النهاية، وصلت عند مصور كان يتهيأ لفتح محله، بعد أن ذهب لتناول غدائه. ومن حسن حظي أنه عاد في اللحظة التي وصلت فيها قرب محله.

بعد أن ألقيت التحية رحب بي، وبابتسامة عريضة قلما ترينها على وجوه رجال هذه المدينة، قال لي "تفضلي يا سيدتي إلى داخل الاستوديو لتتأكدي من تسريحة شعرك وهندامك أمام المرآة، قبل أن أبدأ بالتقاط الصور لك".

وقفت أمام المرآة، كانت هناك ثلاثة أشياء في هندامي غير مضبوطة: المكياج، ياقة الجاكيتة، وغُرة شعري. وقفت لدقائق طويلة أمام المرآة، دون أن تبدو عليه علامات الانزعاج.

كان الاستوديو جميلاً جداً ويبعث على الارتياح، لكني عندما جلست على الكرسي- بعد ذلك- أحسست بضيق في صدري، رغم أنه يختلف كلياً عن كرسي الإعدام أو كرسي السلطة. هو الآخر مثل كرسي الحلاق ليس ملكاً لأحد، يجلس عليه كل يوم أشخاص كثيرون لا يتركون خلفهم سوى ملامح وجوههم.

كنت أود أن يسرع في التقاط الصور لألحق بالبورصة. ولكني بعد أن جلست لم أرغب في النهوض، فقد جذبتْ حركات المصور ونظراته انتباهي. كان يبدي اهتماماً كبيراً بي، ويخرج رأسه من وراء الكاميرا بين لحظة وأخرى ليوجهني حسب عدسة الكاميرا، فيقول مرة "غُرة شعرك نازلة"، وتارة أخرى يقول "ابتسمي"، وأحياناً أخرى يقول "أُنظري إلى الكاميرا، وكأنك أنتِ التي ستلتقطين الصورة لي، وليس أنا الذي سأفعل".

هزَّتني، أنا الفنانة، كلماته الأخيرة. حقا: من الذي يلتقط الصورة للآخر؟

قبل أن يشير بيده لأستعد لالتقاط الصورة، سرقتْ صورٌ، معلقة في جدران الاستوديو، نظري من الكاميرا. كانت كلها بالأسود والأبيض. وكانت إحدى تلك الصور تبدو كأنها لوحة فنية؛ كانت صورة امرأة ملامحها تشبه ملامحي تماماً، ولكني كنت أبدو أصغر منها سناً. وبسحرِ امرأةٍ وجهت له سؤالاً "من تلك المرأة يا تُرى؟ ملامحها ليست غريبة".

كنت في انتظار الجواب، لكنه كبس الزر بإصبعه والتقط لي صورة. كان للحظات ينتظر تعابير وجهي لكي تظهر طبيعية في عدسته. بدا المكان كأنه مملكة وليس ستوديو. أمسك بيدي وخرج أمامي. في تلك اللحظات، اجتاحني إحساس حزين: تصورت نفسي تائهة وقد عثر هو عليْ. طلب لي شاياً، ثم أشعل لنفسه سيجارة، وقال: "قصة تلك اللوحة طويلة.. أطول من وقت شرب الشاي".

كان يتحدث وهو ينظر إلى عيني المرأة، ويبتسم ابتسامة خفيفة. قبل أن يجفف صوري ويعطيها لي، ألقى إليّ بسؤال لا أعتقد أنه يطرحه على أي شخص يلتقط صوراً لديه: "لماذا تلتقطين هذه الصور؟ من أجل الباسبورت؟"

وبهزة من رأسي، أومأت له بالإيجاب.

"إلى الخارج؟"

مرة أخرى، اختصرتُ الإجابة بنفس الطريقة. كان يعرف أنني لن أُسافر إلى الخارج من أجل الدراسة، لأن عمري يبدو كبيراً. ويعرف أيضاً أنني لم أتلق دعوة من هناك، لأنني ما أزال دون باسبورت. لم يقل لي لا تسافري إلى الخارج، إنما قال "مكثت خمسة أعوام في السويد، في مدينة أوبسالا. وكنت أتمتع بحق الإقامة الدائمة، ومع ذلك فقد عدت إلى دهوك و...."

استحالت عيناه إلى عُشّي عصافير، انطلقت منها عصافير الدوري أسراباً أسراباً، لكنها لم تكن تحط على أغصاني، لأن الأخيرة كانت تهتز متمايلة بشدة أمام موجات رياح الزمن.

قبل أن أتوجه إليه بالشكر لأودعه فيما بعد، أشاح بوجهه جانباً. لم أكن متأكدة هل كان يوجه كلامه لي، أم أنه كان يحدث نفسه، عندما قال: "لقد عدت، وأنا لست نادماً على ذلك. يمكنك أن تقولي إنني إنسان مثالي. لقد كان نضالنا وكفاحنا نوعاً من أنواع المثاليات، ولكننا كنا نؤمن به. وقد تحملنا كل شيء من أجل ذلك الإيمان وخاتمته. ولكن اليوم، جميعنا لا نحتمل إنساناً مثالياً واحداً. هذه هي مأساة المرء، وبالخصوص إذا كان ذلك المرء كردياً..."

❖

كان من المفروض أن أتوجه إلى البورصة لأُسلم الصور إلى الصديق بيكَس، ولكن بدلاً عن ذلك ذهبت إلى البيت، وانزويت في خلوتي مثل كل مرة. أمضيت تلك الليلة وأنا أنظر إلى صوري، وأتذكر تفاصيل الاستوديو وما جرى فيه، وخاصة لوحة تلك المرأة التي غدت سؤالاً. لم أكن أعرف اسم المصور، ولم يكن لديَّ رقم هاتفه أيضاً. ذهبت ووقفت أمام المرآة، ورحت أُدقق النظر في ملامح وجهي، لا أعرف كيف تراءت أمام عيني صورة تلك المرأة. كانت قد مرت فترة طويلة نسيت فيها المرآة، رغم أنني- في الصباح، وقبل أن أخرج من البيت- أقف نصف ساعة أمامها، كنت خلالها أتطلع في شعري وعينيَّ وماكياجي. ولكن في

تلك الليلة، كنت أنظر إلى نفسي، من أنا؟ من تلك المرأة في الصورة؟ من تلك التي تظهر في المرآة؟ ومن هو المصور؟

في بادئ الامر لم أكن أعرف أن رقم هاتف الاستوديو موجود على مغلف الصور الأبيض، اسم الاستوديو، ستوديو "جيهان"، إضافة إلى رقم هاتف المحل، كانا موجودين في ختم المحل على المغلف. في اليوم التالي، لم يكن الأول من تموز، بل الحادي والثلاثين من تموز عام ألفين وخمسة. وبحجة تقديم الشكر، اتصلت بالمحل هاتفياً. من نبرة الصوت وأسلوبه الشاعري، عرفت أنه هو من يتكلم. وخمنت أنه لوحده في الاستوديو، لأنه كان يتحدث بروية وهدوء. تبادلنا الكلمات حتى سخن الحديث، فقال في النهاية: "حديثنا لم يكتمل بعد، ولكن الوقت كان ضيقاً؛ فقلت له بغنج ودلال: "سآتي إليك ونتناول شاياً معاً، ولكن بشرط أن تعطيني نسخة من لوحة تلك المرأة".

لما وصلت إلى الاستوديو، كان قد نفذ ما اشترطته. كان قد غلف اللوحة بجريدة قديمة، ذكّرتني بتلك اللوحة التي كنت قد رسمتها لهَزار البيشمركة ذات مرة.

كنت أحتسي الشاي وأنا أستمع إلى قصة تلك المرأة في الصورة. كان كالروائي يهتم كثيراً بالتفاصيل. كان يصف المرأة لدرجة يشعر المرء معها بأن المرأة حاضرة معنا. أحياناً كان يتأمل زينتي وأناقتي، وتارةً أخرى ينظر إلى الشارع الذي كان يضج بالسيارات والبشر.

"إسمي كرمانج، ويدعونني كرمانج الكاميرا، لان الكاميرا الفوتوغرافية لا تفارق كتفي أبداً. في عام ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين، وبالذات في شهر تموز، هاجرت إلى الخارج. ومن تركيا حتى السويد، رأيت كل ما يقع بينهما. وبعد أن وصلت إلى السويد بعدة أشهر، حصلت على حق اللجوء. وهكذا بتُّ صاحب بيت ومعاش شهري وبعض الحقوق الأخرى التي يفرح بها اللاجئ كثيراً. ولكن تلك الحقوق تظل قليلة، لأن اللاجئ يبقى مع ذلك أجنبياً.

آوتني أكثر من مدينة سويدية، ولكني كنت أشعر أنني ساكن غير مرغوب فيه. صحيحٌ أنهم لا يقولون لك في وجهك "نحن لا نريدك"، ولكنهم- بنظراتهم وتصرفاتهم- يقولون ما يعني ذلك ألف مرة باليوم.

وكما قلت لك رأيت في السويد أكثر من مدينة وجربتها، ولكن دون فائدة؛ فغريزة الاغتراب كانت تدفعني، لا إرادياً، نحو الانعزال عن السويديين، حتى اغتربت عنهم وعن نفسي أيضاً. كنت أحاول أن أتعلم لغتهم، ولكن في هذا العمر من الصعب أن يتعلم المرء أي شيء كان.

وكنت أرغب في دراسة فن السينما، ولكن مسألة العمر أيضاً كانت تقف عائقاً أمام تلك الرغبة. في أوروبا، يغدو السن الكبير مشكلة، ليس فقط للدراسة، بل وللعمل والعلاقات مع الناس، وخاصة مع الجنس الآخر. عند هبوط الليل، كنت لحظتها فقط أشعر بوجودي وانتمائي وبأنني إنسان، وأن الوقت رفيق، ولكن المكان كان يهرب مني.

في السويد، لم تتغير عليَّ الأشياء الخارجية مثل الجو والمكان فقط، بل إن دواخلي كانت تتجه نحو التغيير. في الغربة، ينصهر الإنسان رغماً عنه يا مريم.. والتغيير ربما كان أمراً جيداً بالنسبة للأطفال والمراهقين، ولكن ليس لإنسان تجاوز عمره الأربعين..."

نارين، منذ بداية علاقتي بكرمانج الكاميرا، وحتى النهاية، لم ترد كلمة رجل على لسانه ولو مرة واحدة؛ وإنما كان يستخدم على الدوام كلمة إنسان، في حديثه. ويواصل هو حديثه ليخبرني تفاصيل قصة عودته إلى كردستان: كيف أبلغ السلطات المختصة في السويد رغبته في العودة الطوعية إلى بلده، وسط دهشة السويديين؛ لأنه كان من النادر جداً أن يطلب أحد ذلك. ولكنه كان يصرح لهم بحقيقة مشاعره وموقفه؛ كان يقول لهم إن الزمن زمنه، ولكن المكان ليس مكانه. ربما كان مكان شخص آخر، ولكن هو الذي شغَله.

وقبل أن يعود الى الوطن، أجرت صحيفة سويدية تابعة لبلدية ستوكهولم معه حواراً، سألته فيه عن الأسباب التي دعته للتفكير في العودة، فقال: "السويد بلد في غاية الجمال والنظافة، ومن حق السويديين أن يفخروا بذلك، ومن حق شخص مثلي أن يحسدهم عليه. وفي الحقيقة، أنا في حاجة إلى وطن كالسويد، وطن الحقوق والحريات والإنسان. ولكن السويد ليست في حاجة لي.. هناك وطن آخر يقال له "كردستان" يحتاجني أكثر من السويد، ولزامٌ علي ألا أظل بلا موقف".

هاجر إلى الخارج في تموز عام ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين، وعاد إلى كردستان في تموز من عام ألفين. يبدو أن شهر تموز لم يقلب فقط

حياتي أنا رأساً على عقب، إنما حياة كثيرين آخرين، دون أن يجرءوا على الحديث عن ذلك.

لم أكن أود خوض غمار الحديث أكثر، لأن الاستوديو كان مصدر رزقه الوحيد. وهو أيضاً لم يكن يرغب في زيارتي في بيتنا كي لا تتعرض لي منجول، حيث كنت قد حدثته قبل الآن عن كراهيتنا لبعضينا. كان متعاطفاً معي إلى أبعد الحدود. يمكنك أن تقولي أنه أُعجب بي، أنا نفسي كنت قد أُعجبت به. وكنت كلما عرفت شيئاً جديداً عن حياته أجدني مشدودة إليه أكثر. كنت مترددةً في بادئ الامر، تُرى هل أُصارحه بحقيقة أمري، أم لا؟ لأنه لا شيء يمكن إخفاؤه في هذه المدينة، التي لم يبق فيها حجر ولا شجر إلا وأصبح صديقاً للأمن والمخابرات، ولا بد أن يأتي اليوم الذي سيعرفُ فيه الحقيقة. ولكن حبي للحياة، ورغبتي في اكتشاف عالمه، كان يشفع لي كذبي، أو عدم قولي الحقيقة. لم أكن أصدق أنني، في يوم من الايام، سأعثر على نصفي الآخر. كنت أشعر أنني تلك المرأة "جيهان"، وأنه محمد المهدي الحقيقي قد جاء إليْ.

عيناي- اللتان كانتا كنبعين جفّ عنهما الماء- أشرقتا مرة أخرى، ولكن ليس بالدموع هذه المرة، بل ببريق الحياة يشع منهما. فقلبي- الذي قُصقص جناحاه أكثر من مرة- كسر قفصه، وانطلق يحلق في أفق الفضاء، وصوب قوسٍ قزح أيام زمان.

رجعتُ إلى مريم عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثمانين، يوم كان أبي ديوالي وأمي حليمة لا يزالان على قيد الحياة، يوم كنتُ سليمةً بلا

شروخ. استحضرت ذكريات تلك الأيام.. ذكريات عذريتي التي بسببها جرَّت علي منجول العار في الدنيا والدين.

في تلك الايام التي عرفت فيها كرمانج كنت قد نسيت كل شيء: شروخي، الثعابين العمياء، الدارسين وسَميان أيضاً. نسيت والديّ اللذين لم أعد أزور قبريهما، لا في أيام الخميس ولا في أي يوم آخر. لم أعد أهتم بشيء لأنني كنت أشعر أن العمر يمر سريعاً دون أن ينتظرني، إنها آخر محطة ألتقي فيها مصيري، كرمانج الكاميرا.

عزيزتي نارِين، لم يكن قد تبقى لي أية محطة لأتوقف عندها، كانت هذه آخر محطة. لا قطار ولا مسافرين، فقط أنا وهو، وأحياناً يُصبحان هو وأنا.

أتمنى لو كنتِ رأيتِني ساعتها، كنت ستعتقدين أنني ما قابلت قطّ رجلاً قبل ذلك. كنتُ قد نسيت ماذا فعل بي جنس الرجال.

❖

وأعقبت السنةَ سنةٌ أخرى. استمرت علاقتنا حتى تموز من العام التالي. سنة ملآى بالعاطفة الجياشة والعشق والرومانسية، غدونا كعاشقين مبتدئين.

كانت رغباتنا وغرائزنا تقف عند حدود القبلات. في أحايين كثيرة، كان جسدانا يُفلتان منا ويودان لو يلتهما بعضيهما. كنا نحن الاثنين

عطِشيْن وجائعيْن، ولكن بسيل القبلات وحرارة الأنفاس، برائحة تعرق جسدينا والأحضان، كنا نطفئ نيران أعماقنا.

كان يعاملني كقطعة من بلور أو كريستال، يخشى أن تنكسر بين يديه لشدة رقتي وجمالي، كما كان يقول لي دائماً. وفي تموز من عام ألفين وستة، بعد أن أصبحت متأكدة من مشاعري تجاهه، وكذلك من مشاعره تجاهي، وددت، بخبث، أن أسأله عن مصير علاقتنا، لأنني أشك دوماً في النهايات. كنت أخاف من يوم كهذا، من اللحظة التي تفرغ فيها المحطة الأخيرة أيضاً، وتكلُّ عيناي في انتظار مسافر بلا عنوان. ولكن ذلك اليوم موجود في لوح القدر وسيأتي، شئتُ ذلك أم أبيت؛ وستجلب تلك اللحظة معها قراراً وموقفاً جديداً.

وبقدر ما ذهبت أيام ولحظات، بقدر ذلك أيضاً ضاعت منا فرصٌ يا نارين. كان الوقت وقت مراجعة الذات، وقت الاعتراف، وقت طلب الصفح من الأيام واللحظة الزمنية والمستقبل.

لم أكن خائفةً أبداً كما كنت ذلك اليوم، لأنني لم أعرف قيمة الحب والحياة مثلما عرفته ذلك اليوم.

في ذلك اليوم، عندما كنت أتطلع في ملامح وجه كرمانج، كان الهلع يأخذ بقلبي. صوته الخشن، شعره المجعد، ذقنه وشواربه القصيرة، الشعر الأسود الذي يغطي أديم ساعديه، وغليونه، كلها كانت تقول لي: انتبهي يا مريم، إياكِ أن تقولي الحقيقة، لأن هذا أيضاً رجل شرقي مثل محمد مَيْريَ وهَزار البيشمركة وإسلام الشيوعي وهاوار الإسلامي.

وهو، أولاً وأخيراً، أسير مجتمعه، ولن يكون بمقدوره أن يفعل شيئاً من أجلك. لكنه عندما قال "مريَمي.."، فردتُ جناحيَّ كطائر رخ، واختفيت في شمس وجهه.

في ذلك اليوم، كانت المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً يبكي أمامي، فقد كنت دوماً أرى نفسي باكية عند الرجال.. بكى كرمانج كثيراً.. بكاء طفل من شدة البرد.

"مريم... أنا أحبك، ولكن...."

عندما قال "ولكن"، أحسست بظهري ينكسر، تردد صدى صوت الشروخ القديمة وتلك التي لم تظهر في روحي بعد أيضاً. وددت ألاَّ يستمر في حديثه، بل أن يستمر في حبه لي.

طأطأتُ رأسي، وأدركت حينها ما الذي حل بهذه الرأس. اشتعلت النيران في أعماقي، كنت أنوي أن أرتمي في حضنه وأحرقه بناري، ولكنه اندفع هو نحوي، احتضنني وأطفأ ناري.

"مريمي... أنا أُحبك بكل كياني وحياتي، وأنا أعرفك. لا تتصوري أنني لا أعرف قصتك بالكامل، كلاَّ يا روحي. أعرف متى استبدلت أمك حليمة ثوبها، ومتى قرر والدك ديوالي اللحاق بها، ليتركك وحيدةً مع زوجة الأب منجول. وأعرف أيضاً متى جعل محمد مَيْريَ الرجلَ مرادفاً للحيوان، وأعرف أيضاً كيف عاد المجاهدون الثلاثة الآخرون من غزواتهم صِفر الأيادي. أنا أعرف الكثير عنك، ولكنك لا تعلمين شيئاً عني لحد الآن. وقد حان الوقت كي تعرفي أنتِ أيضاً؛ فأنت تستحقين أن

تطلعي على الحقيقة: أنا لا أستطيع أن أتزوج بك، لأنني لا أنفعك، أنا....."."

نارِين!

"نعم يا مريم"

أتعرفين لماذا كان كرمانج يرفض الاقتران بي؟ هل تعرفين ماذا قال لي؟

"كلا، ولكني أُحب أن أعرف"

قال "أنا لا أستطيع الزواج بك، لأني لا أنفعك. أنا مُصاب.. ففي معارك اقتتال الأخوة الاعداء أُصبت بطلق ناري بين فخذيَّ أفقدني الرجولة".

"وبعد ذلك يا مريم؟"

وبعدُ ماذا يا نارِين؟

(النهايـة)

المؤلف: صبري سليفاني:

كاتب وروائي كُردي، من مواليد دهوك العراقية 1972. صدرت له روايات: "دجلة حين تترك أسماكها ظمآنة"، "عشرون عامًا وأمسية"، "أسفار السليفي.. البحث عن النصف الآخر"، وديوان "عشرة أحلام"، فضلاً عن "خريف الكلمات: قراءات نقدية وفكرية"، و"من البداية إلى البداية: سجالات فكرية وفلسفية".

المترجم: سامي الحاج:

كاتب ومترجم عراقي، مواليد بغداد 1959. ينشر كتاباته الأدبية باللغتين العربية الكردية منذ عام 1985. يقيم في السويد منذ أواخر عام 2001. من ترجماته إلى الكردية رواية "شجرة الرمان" ليشار كمال، و"القرية" لمحمد سليم سواري، و"شواف.. الليلة الأخيرة"، مجموعة قصصية، و"المحرقة"، لبُلند محمد، فضلاً عن رواية "الحب في زمن الألم" لمحسن عبدالرحمن.

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عالمية

101- مطارحات عائلية

اختيار وتقديم وترجمة : مفرح كريم

102- دون كـازمُـورُّو

تأليف : ماشادو ده أسيس

ترجمة : خليل كلفت

103- الإخوة الأعداء

تأليف : نيكوس كازانتزاكى

ترجمة : إسماعيل المهدوى

104- آنـابـــاز

تأليف : ســان جون بيرس

ترجمة : علــى اللواتــى

105- الرُّوح الحُلوة لدون داميان

تأليف : بورخيس، خوان بوش، بالنثويلا، وآخرون

ترجمة : محمد إبراهيم مبروك

106- دون كيخوتــه (الجزء الأول)

تأليف : ثربانتس

ترجمة : د. عبد الرحمن بدوى

106- دون كيخوتــه (الجزء الثانى)

تأليف : ثربانتس

ترجمة : د. عبد الرحمن بدوى

سلسلة
آفاق
عالمية

رواية كردية فريدة، فى ترجمتها العربية الأولى، تكشف عن خبايا المجتمع، وشقوق الروح، والأحلام والانكسارات والأوهام الضائعة فى مجتمع شرقى، هو جزء من المحيط العربى. وبطلة الرواية تعرى ما يتخفى وراء السطح، وراء الشعارات والأقنعة، وراء التقاليد والأعراف، من انتهاكات للجسد والروح، إلى أن يصبح الصراخ بلا جدوى، وإلى أن يصبح الأمل مرادفا لليأس.

وهذه ترجمة مرهفة، كأنها مكتوبة مباشرة «بالعربية، فى سلاستها القصوى، وحساسيتها البليغة؛ وحنكة من مترجمها سامى الحاج تتأسس على خبرة عميقة سابقة بالترجمة من العربية وإليها.

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

السعر: ثلاثة جنيهات